مِنْ أَسْرارِ المُغَايرة

في

نَسَق الفَاصِلة القُرآنِيَة

بقلم الدكتور

محمد الأمين الخضري

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

من أسرار المغايرة
في
نسق الفاصلة القرآنية

بقلم الدكتور
محمد الأمين الخضري

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أحسب أن فنًا من فنون البلاغة تعرّض لخلل الرأى عند تطبيقه على النظم الكريم، كما تعرّض له السجع، فمن غالٍ فى رفضه، تنزيهًا للقرآن عن شائبة تكلّف، أو إجحاف بالمعنى، ومن مُفرطٍ فى القول باحتفاء القرآن به، لدرجة أن يغير مواقع الألفاظ وهيئآتها، ويعمد إلى الزيادة والنقص فيها لتحقيق هذا المطلب.

وبين المغالاة فى الرفض، والجنوح فى الإثبات، يقع إعجاز النظم الحكيم. هذا الإعجاز الذى يتجلى فى المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون، فإذا نظرت إلى ما فيه من تناسب الفصول والمقاطع، خلت أنه يعمد إليه ويتوخّاه، وإذا تأملت المعانى والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ، وفقًا لتوائب المعانى وحركتها فى الأذهان، فمن أى جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز.

والبحث يعالج جنوح القول بالمغايرة فى نسق الألفاظ رعْيًا للتناسب، ويتتبع أبرز شواهده فى الذكر الحكيم، بحثًا عما وراءها من أسرار تتعلق بمعانى الكلام ومراميه، دون التهْوين من شأن هذا التناسب، وأثره فى استمالة الأسماع والقلوب، ذلك أن تمام التحدى فى لغة شاعرة أن يجتمع فى النظم المعجز حسن وقع المعنى فى النفس، وجمال الإيقاع فى السمع.

ولنا فى الفاصلة وقفات أخر، بحثًا عن أسرار المغايرة فى الصِّيغ، ومايقع فيها من إيجاز وإطناب. والله أسأل أن يوفقنى إلى إتمام ما بدأته، ويعيننى على فهم أسرار كتابه.

القاهرة — أكتوبر ١٩٩٣ م

توطئـــة :

من عجب أن يزعم زاعم أن القرآن يقصد إلى المغايرة فى نظمه بالتقديم والتأخير رعاية للفاصلة ، أو حفاظا على السجع ، فى الوقت الذى يرى فيه النقاد ضرورة ائتلاف اللفظ والوزن فى الشعر ، ويعيبون منه ماخرج على غير النسق المعهود فى ترتيب الـكلام لتصحيح الوزن ، يقول قدامة فى كتابه « نقد الشعر » تحت عنوان « ائتلاف اللفظ والوزن » : (وهو أن تكون الأسماء والأفعال فى الشعر مستقيمة كما بنيت ، لم يضطر الأمر فى الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة والنقصان منها ، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المؤلفة منها ، وهى الأقوال ، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا إلى تقديم مايجب تأخيره منها)(١) .

فإذا كان التقديم والتأخير لتصحيح الوزن عيبا فى الشعر ، وهو أمس حاجة إلى التساهل ، بحكم مافيه من التزام الأوزان والقوافى ، فإن القول به مراعاة للفاصلة أعيب ، لما هو مقرر فى عرف هذا اللسان من أنه يباح فى النظم ما لا يباح فى النثر ، لأن الناظم محكوم بقيدين : الوزن والقافية ، والناثر محكوم بقيد القافية وحده ، وحتى هذا القيد بإمكانه الخروج عنه بتنويع القوافى فى سجعه .

إننا لو نظرنا إلى القرآن على أنه نص أدبى نثرى ، وأجرينا عليه قواعد النقد العربى ، ومنها هذا الأصل الذى أشار إليه قدامة لحكمنا عليه بعدم

---

(١) نقد الشعر ص ١٦٥ .

تمكن فواصله ، لاضطراره إلى التقديم والتأخير حفاظا عليها طبقا لهذا الزعم، فما بالك بنص معجز ؟ !

لقد استهجن الزمخشرى مثل هذا القول فيما نقله السيوطى عن الكشاف القديم : (لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها ، إلا مع بقاء المعانى على سردها ، على المنهج الذى يقتضيه حسن النظم والتئامه ، فأما أن تهمل المعانى ويهتم بتحسين اللفظ وحده ، غير منظور إلى مؤداه ، فليس من قبيل البلاغة)(١) .

وبالرغم من أن السيوطى نقل هذا عن الكشاف ، فإنه نقل فى مقابله عن شمس الدين بن الصائغ نصا طويلا ، يستدل فيه على أن القرآن يرتكب مخالفة الأصول مراعاة للتناسب بين الفواصل، وأحصى من ذلك نيفاوأربعين موضعا ، ثمانية منها قدم فيها ماحقه التأخير(٢) .

ثم توسع المفسرون حتى أحالوا معظم التقديم فى الفواصل إلى هذا الغرض وحده ، وبمثله قال بعض أهل البيان . حتى إن ابن الأثير لم يجد حرجا فى تغيير السبك ، ومخالفة الأصل فى ترتيب الألفاظ ، من أجل حسن النظم السجعى ، فقال رداً على الزمخشرى ، الذى ذهب إلى أن تقديم المفعول للاختصاص فى قوله تعالى: « إياك نعبدوإياك نستعين(٣) » قال ابن الأثير : (فإنه لم يقدم المفعول فيه للاختصاص ، وإنما قدم لمكان نظم الكلام، لأنه لو قال : نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله « إياك نعبد وإياك نستعين » . ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ١٠٥/٢

(٢) السابق ٩٩/٢

(٣) سورة الفاتحة ٤

الرحيم مالك يوم الدين » فجاء بعد ذلك قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى الذى هو على حرف النون ، ولو قال : نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال الحسن)(١) .

إن يقيننا بجمال التوافق فى المقاطع وأثره فى استمالة الأسماع والقلوب لا يحملنا على قبول القول بأن (لهذه الموسيقية أثرها فى النفس ، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى ، ومن أجلها حدث فى نظم الآى ما يجعل هذه المناسبة أمرا مرعيا)(٢) فلا شك أن هذه المناسبة أمر مرعى لكن تغيير نظم الآى من أجلها ، إنما هو ضرب من الضرورات نجلّ القرآن عن مثله .

وإذا كان الفراء من قبل حاول أن يربط بين مراعاة الفواصل فى القرآن وتناسب القوافى فى الشعر ، واستباح تغيير النظم فى رؤوس الآى لتحقيق هذا التناسب ، حتى أجاز العدول عن الواحد إلى التثنية فى قوله تعالى : «ولمن خاف مقام ربه جنتان » على أن المراد جنة واحدة وعدل عنه لمشاكلة رؤوس الآي ، فإنه قد وجد من تصدى له وقسا فى الرد عليه على ما نقله السيوطى : (وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه ، وقال : إنما يجوز فى رؤوس الآى زيادة هاء السكت ، أو الألف ، أو حذف همز ، أو حرف ، فأما أن يكون الله وعد بجنتين فتجعلهما جنة واحدة لأجل رؤوس الآى معاذ الله)(٣) .

وأعجب من رأى الفراء فى استباحته تغيير النظم للمشاكلة بين المقاطع ، تفسير الدكتور محمد زغلول سلام ذلك بأنه ربط بين أوزان القرآن وأوزان الشعر ، وكأن الفراء يعيد إلى الأذهان ما تنبه إليه العرب قديما من المقارنة

(١) المثل السائر ٢/٢١٢
(٢) من بلاغة القرآن ص ٨٧
(٣) الإتقان ٢/١٠٠

بين وزن القرآن ووزن الشعر . يقول : (وقديما تنبه العرب إلى وزن القرآن فقارنوه بوزن الشعر ، وإيقاع سجع الكهان ، ولكن هذه الملاحظات سكتت لسبب أو لآخر ، ولعل هذا السكوت عن البحث فى نظم القرآن من هذه الناحية يرجع إلى انصراف الناس إلى المعانى ، وما تحمل من تشريع وعقيدة ، وهو جل اهتمامهم فى ذلك الوقت ، ومهما يكن من شيء فالجديد فى كتاب الفراء ، والجدير بالاهتمام أنه لاحظ هذا النسق الصوتى ، وحاول أن يتتبعه ، ونراه فى ملاحظاته التى أوردها مدركا تماما لوزن القرآن ، مدركا الغاية التى يعمد إليها فى التزام وزن بعينه . وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم وتوافق الفواصل فى أواخر الآيات . وإذ تسترعى انتباهه هذه الظاهرة يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر ، وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن لا يذهب بعيدا ، بل يريد أن يقول : إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات . ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوب الكلمات مع وزن الآية ومراعاة رؤوس الآيات(١) .

لا أعرف أن الفراء كان يقارن بين وزن القرآن ووزن الشعر ، وإن كان يرى أنه يستباح فى رؤوس الآى ما لا يستباح فى غيرها ، كما يستباح فى قوافى الشعر ما لا يستباح فى حشوه ، وتلك خاصية تتعلق بالفواصل وحدها دون سائر الآي .

ولا أعرف أن الفراء علل عدول القرآن عن لفظة إلى أخرى لاستقامة الوزن فى غير رؤوس الآى ، حتى يقال : إنه كان « فى ملاحظاته التى أوردها مدركا تماما لوزن القرآن ، مدركا الغاية التى يعمد إليها فى التزام وزن بعينه » بل كان تعبيره فيما يرى أنه جرى على غير الأصل : « لمشبا كلة رؤوس الآى »

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ص ٦١

كما تراه فى سور : الفجر(١) ، والشمس(٢) ، والضحى(٣) ، والعلق(٤) ، والزلزلة(٥) ، والعاديات(٦) . وحين يستشهد بوجود مثل هذه المغايرة فى الشعر ، كان يقابل بين القوافى والفواصل ، لا بين وزن ووزن . مثال ذلك ما قاله فى تثنية الجنة من قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » : (وقد يكون فى العربية جنة تثنيها العرب فى أشعارها . أنشدنى بعضهم :

ومَهْمَهين قَذَفَيْن مَرْتين قطعته بالأَمّ لا بالسَّمْتَين

يريد : مهما وسمتا واحداً . وأنشدنى آخر :

يسعى بكيداء ولهذمين قد جعل الأرطاة جنتين

وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان ، فيحتمل مالا يحتمله الكلام)(٧) .

بل لا أعرف أن العرب حين نعتوا القرآن بالشعر قصدوا إلى التشابه بينهما فى الوزن ، وإنما كان ذلك إقرارا منهم بسمو بيانه ، وجمال إيقاعه وتحدر نظمه ، لأن هذه صفة الشعر عندهم ، كما كان وصفه بالسحر دليلا على قوة تأثيره فى نفوسهم ، وعجزهم عن محاكاته ، فهو هذيان مهزوم ، وهوَسٌ محموم ، يقول أستاذنا الدكتور محمدرجب البيومى : (للشعر أوزانه وقوافيه التى تمنع أن ينتسب إليها القرآن،والذين قالوا عنرسول الله«شاعر نتربص به ريب المنون » لم يقولوا ذلكعن اعتقاد وإيقان، فهم يعرفون ضروب الشعر وأوزانه ، إنما غلبتهمالعصبية فطفقوا يهرفون بما لا يوقنون ، فمرة ينسبونه للكهانة ، وثانيةللسحر ،وثالثة للشعر ، لا لأنهم يعتقدون ذلك ، بل ليوحوا إلى العامة بما يغرس بذور الشك فى نفوسهم فلا يؤمنون)(٨) .

---

(١) معانى القرآن ٣/٢٦٠
(٢) السابق ٣/٢٦٧
(٣) السابق ٣/٢٧٣ ، ٢٧٤
(٤) السابق ٣/٢٧٨
(٥) السابق ٣/٢٨٣
(٦) السابق ٣/٢٨٦
(٧) السابق ٢/١١٨
(٨) البيان القرآنى ص ١٦٠

لا أحسب أن فنا من فنون البلاغة تعرض عند تطبيقه على النظم القرآنى لخطل الرأى كما تعرض له السجع ، بين مفرط يغالى فى رفضه ، تنزيها للقرآن عن شائبة تكلف واستكراه للألفاظ كالباقلانى ، ومفرّط يبالغ فى احتفاء القرآن به لدرجة يدعى فيها إكراه المعانى على ارتداء ما لا يناسبها من الألفاظ ، حتى زُعم أن القرآن يختار من الأعداد ما يشا كل رؤوس الآى وإن خالفت حقيقة المعدود ، كما فى قوله تعالى : «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية(١) » وقوله : «عليها تسعة عشر(٢) » فلا الحاملون للعرش ثمانيـــة ، ولا خزنة جهنم تسعة عشر ، ولكنها السجعة التى قبضت بزمام النظم(٣) . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

نحن نقول مع الأستاذ على الجندى (لا ننكر ما للسجع والازدواج من أجراس شاجية ، تكسب الكلام أناقة وحلاوة ، وتجعل له وقعا نديا على السمع والقلب ، ولكننا لا نستطيع بحال أن ننزله هذه المنزلة الخطيرة التى يستباح معها الخطأ فى الكلام ، والتى تسحب ذيل الإغفال والإهمال على كل غرض آخر ، وبخاصة حينما يتصل الأمر بكلام الله وكلام رسوله)(٤) .

هذه هى النظرة المعتدلة إلى فواصل القرآن (فالبلاغة من حيث هى فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه ، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها ، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعى . وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية ، بدلالتها المعنوية المرهفة ، ونسقها الفريد فى إيقاعها الباهر ، وبين ماتقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظى ، يكره الكلمات على أن تجىء فى غير مواضعها البيانية)(٥) .

---

(١) سورة الحاقه ١٧ (٢) سورة المدثر ٣٠

(٣) أثر القرآن فى تطور النقد العربى نقلا عن «نولدكه» ٣٧٤ وما بعدها .

(٤) صور البديع - فن الاسجاع ص ٩٩

(٥) الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥٨

وبهذه النظرة المعتدلة نرى أن تناسب الفواصل مقصد من مقاصد النظم، وهو من حِلَى القرآن وروافد تأثيره، لكننا ننزه القرآن عن أن يقهر المعانى — فى سبيل تحقيق هـذه الغاية — على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ، أو يحدث فى بناء العبارة ما يجعل توافد المعانى على الأذهان مخالفا لترتيبها فى الجنان.

وقد حاولت جاهدا أن أتسمع لهمس السياق، وأنعم النظر فيما قيل فيه بمخالفة الأصل فى الترتيب لتناسب المقاطع، بحثا عن أغراض النظم وراء هذه المخالفة، هادفا - دون شطط أو تكلف - إلى الكشف عما صاحب موسيقى الفواصل من أسرار البيان. بيقين منا أن كلام الله المعجز هو المثل الأعلى للنظم الذى يتعانق فيه حسن اللفظ وسمو المعنى.

الترتيب بين المتعاطفات

من المواطن التى قيل فيها إن القرآن غاير الترتيب بين المتعاطفات لتناسب الفواصل، تقديم الأرض على السماء، مخالفة للأصل من تقديم الأشرف على ما هو دونه، وقد راعى القرآن الأصل فى معظم المواطن التى اقترنت فيها السماء والأرض، فقدم السماء، إلا بعض المواضع القليلة التى تقدمت فيها الأرض، فقيل إن تقديمها لغرض تحقيق السجع. يقول المرحوم الشيخ عبد الرحمن تاج: (ورد فى القرآن عشرات المرات ذكر الأرض مقرونة بالسماء مفردة ومجموعة، وفى هذه المرات جميعها نجد أن السماء أو السموات مقدمة على الأرض إلا فى مواضع قليلة جداً قدم فيها ذكر الأرض، وبتجلى فى موضعين، وذلك من أجل تناسب الفواصل. فمن ذلك قوله تعالى: «تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى»(1)

(1) سورة طه آية ٤ - ٥

فإن فواصل السورة على الألف ، ومراعاة للتناسب بين هذه الفواصل قدمت الأرض على السموات ، التي وصفت بوصف « العلى » المختوم بالألف .

ولذلك لما انتهى هذا الاقتضاء وجاء الجمع مرة أخرى بين الأرض والسماء فى الآية التالية للآيات السابقة مباشرة عاد الاقتران إلى أصله ، فقدمت السموات على الأرض « له ما في السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى »(١) .

ومن ذلك أيضا قوله سبحانه : « ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء »(٢) .

فقد قدمت الأرض على السماء فى هذه الآية ، لأنه أريد تناسب الفاصلة فيها مع الفواصل الأخرى المبنية على الهمزة)(٣) .

وحين نتتبع ورود السماء والأرض معطوفة إحداهما على الأخرى فى القرآن الكريم نجد ما يربو على مائتى موضع تقدمت فيها السماء على الأرض ، جريا على الأصل من تقديم الأشرف ، والأدل على قدرته تعالى ، فى مجال الامتنان بعظيم خلقه ، وعجائب صنعه ، وتقدمت الأرض على السماء فى ثلاثة عشر موضعا ليس من بينها سوى موضعين وقعت السماء فيهما فاصلة . وموضع واحد وقعت فيه موطئة للفاصلة ، فإذا اعتددنا بمثل هذا القول الذى يعتبر التقديم فيها لمجرد رعاية الفواصل ، فإن عشرة مواضع تقدمت فيها الأرض وليست فاصلة يصبح تقديمها عاريا من الفائدة ، وهو ما لايصح وقوعه بحال فى بيان معجز .

---

(١) سورة طه آية ٥ (٢) سورة إبراهيم ٣٨ - ٣٩

(٣) الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ص ١١٢

على أن أحد الموضعين اللذين وقعت فيهما السماء فاصلة جاءت فاصلته بين فواصل متغايرة الروى والوزن ، وذلك قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل. من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم »(١) فالفواصل : « الإنجيل » « انتقام » « السماء » « الحكيم » لم تتفق فيها اثنتان فى حرف الروى ، وتغاير الردف فيها بالواو والياء والألف . وليس مثل هذا مما يتغير نظم الكلام من أجله .

إن القصور فى فهم أسرار التقديم والتأخير يرجع معظمه إلى حصر أسباب التقدم فى الزمان والشرف ، فإذا لم يكن المتقدم أسبق زمانا أو أعلى رتبة فقد مرجحات تقديمه ، فإذا وقع فاصلة كانت هى الغرض . مع أن أسباب التقديم متعددة أشار إليها السهيلى بتركيز شديد فى قوله : (ما تقدم من الكلام فتقديمه فى اللسان على حسب تقدم المعانى فى الجنان ؛ والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق معنى من المعانى إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها ، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق . نعم وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل ، لا بحسب المعنى ، كقولهم : ربيعة ومضر ، وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل ، ولكنهم آثروا الخفة لأنك لو قدمت « مضر » فى اللفظ كثرت الحركات وتوالت ، فلما أخرت وقف عليها بالسكون)(٢) .

فهو يذكر خمسة أسباب للترتيب بحسب المعنى ، وسببا لفظيا جرى عليه لسان العرب فى الميل إلى خفة اللفظ وسهولة جريانه على الألسنة .

---

(١) سورة آل عمران ٢ - ٦ (٢) نتائج الفكر ص ٢٦٧

ثم إن هذه الأسباب تختلف فى ذاتها طبقا لمواقعها ودواعى السياق . فمثلا التقدم فى الرتبة قد ينظر فيه إلى الفضل والشرف فيقدم الأعلى ، وقد ينظر فيه إلى سياقه فيقدم الأدنى إذا كان بسياقه أقرب وأعلق ، وبهذا فسر السهيلى تقديم السماء على الأرض تارة ، وتقديم الأرض أخرى ، فقال : (وأما تقـــديم السماء على الأرض فبالرتبة أيضا وبالفضل والشرف ، وأما تقديم الأرض من قوله تعالى : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » فبالرتبة ، لأنها منتظمة بذكر ما هى أقرب إليه ، وهم المخاطبون بقوله : « وما تعملون من عمل » فاقتضى حسن النظم تقديمهامترتبة فى الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها(١)) .

ثم إن التقديم بالفضل والشرف قد يبدأ فيه بالأفضل ، وقد يعكس على سبيل الترقى من الفاضل إلى الأفضل وقد بين وجه ذلك ابن المنير فقال : (وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم فقدم ، ووجه عكس هذا الترقى من الأدنى إلى الأعلى . ومنه قوله :

بهاليـــل منهم جعفر وابن أمه   على ومنهم أحمـــد المتخيَّر(٢))

هذا الترقى من الأدنى إلى الأعلى هو الذى أوجب تقدم الأرض فى قوله تعالى: « لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » فى سورة آل عمران وماشابهها من سورة إبراهيم ، وهما اللتان وقعت فيهما السماء فاصلة ، لأن العلم بما خفى فى الأرض دون العلم بما خفى فى السماء لعظم خلقها وسعتها ، فبدأ بنفى فوات شىء عن علمه من أسرار الأرض ، مترقيا إلى شمول علمه بما دق من أسرار السماء ، كما ترقى من النهى عن الأدنى إلى النهى عن الأعلى فى قـــوله تعالى : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما »(٣) وكما ترقى فى نفى إعجاز الكافرين له

---

(١) نتائج الفكر ص ٢٧٠   (٢) الإنصاف ٤/٢٣٤
(٣) سورة الإسراء ٢٣

فى قوله تعالى : «وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير(١) » فهم لا يستطيعون الهرب فى الأرض الضيقة الصغيرة ، ولا فى السماء العظيمة المتسعة ، وليست السماء هنا فاصلة ، حتى يقال إن التقديم فيه رعي للتناسب . فإذا ما صحب هـــذا الغرض توافق المقاطع وتآخى أجراسها كان ذلك حسنا على حسن . وقد مس ذلك العلامة أبو السعود مسا رقيقا فى كشفه عن سر تقديم الأرض فى آية إبراهيم، فقال: (وتقديم الأرض على السماء مع توسيط « لا » بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا)(٢) مشيرا إلى أن إبراهيم عليه السلام حين ورد على لسانه هذا الدعاء واكب ترتيب اللفظ على لسانه ترتيب المعانى فى جنانه ، بادئا بالأرض ، وهى ما خفى من علمها على الإنسان دون ما خفى عليه من علم السماء .

أما آية طه التى احتج بها الشيخ تاج فقد وقع البيضاوى على سر دقيق لتقديم الأرض يكشف عنه قوله : (تفخيم لشأن المنزّل بغرض تعظيم المنزِّل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذى هو عند العقل ، فبدأ بخلق الأرض والسموات وهى أصول العالم ، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس ، وأظهر عنده من السموات)(٣) .

نظر ـ رحمه الله ـ فى ترتيب المعانى وصورها فى الألفاظ إلى حركة العقل فى توجهه لإدراك حقائق الخلق ، توصـــلا منها إلى الخالق ، فهو يدرك ظواهر الأشياء أولا ، ثم ينفذ منها إلى خوافيها ، لذا كان نسق الآيات متجاوبا مع هذه الحركة العقلية ، فقدم القرآن بين يدى تعظيم المنزل صفات الأفعال على صفات الذات ، فبدأ بخلق الأرض والسموات « تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى » والخلق صفة فعل ، وهى تابعة فى الوجود لصفة

---

(١) سورة العنكبوت ٢٢

(٢) تفسير أبى السعود ٣/٥

(٣) تفسير البيضاوى ١٩٠/٦

الذات ، وهي الرحمة التي بها كان الخلق ، ثم جاء قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ربطا للمحسوس بالمعقول ، واهتداء بالشاهد على الغائب ، وبالأثر على المؤثر ، ثم كان البدء بالارض فى صفة الخلق هو الأحق ، لقربها من الإنسان ، وظهور العلم بها ، انطلاقا إلى العلم بما هو أعظم وأخفى ، فليس الترتيب هنا بين الارض والسموات ترتيب وجود ، ولا ترتيب تعظيم ، وإنما هو مسايرة لحركة العقل فى إدراك حقائق الاشياء حسب قربها وظهورها ، بغية الاستدلال بالقريب الاظهر على البعيد الاخفى .

وقد جاء تعليق الشهاب غاية فى الدقة على قول البيضاوى : «على الترتيب الذى هو عند العقل » قال الشهاب : (لانه يدرك أفعاله أولا ، ثم يستدل بها على سائر صفاته ، ولذا قدم الخلق ، وثنى بالرحمة التى تتناول الموجودات قبل كل شيء ، لأن الخلق منها ، وليس الترتيب بحسب الوجود ، فإنه بعكسه ، ولذا قدم الأرض[١]) .

على أنني ـ ألمح فى تقديم الارض بين يدى مواساة الله لنبيه ، وإزالة ماسببه له إعراض قومه من آلام وأحزان ، كما ينبىء عنـــه قوله تعالى : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ـ ألمح الارتباط بين الشقاء وموطنه وهو الارض ، فكان البدء به هو الأليق ببلاغة النظم ، وذلك هو الترتيب فى الذكر الذى أشار إليه السهيلى فيما نقلناه عنه .

والقاطع فى الاستشهاد بالتقديم لمراعاة الفواصل قوله تعالى : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى[٢] » وهو ما اعتبره المثبتون للسجع فى القرآن دليلا على أن تناسب الفواصل مقصد من المقاصد التى يعمد إليها القرآن ، ويغير من أجلها نظم الكلام. بدليل أنه الموضع الوحيد الذى قدم فيه هارون على موسى تجاوبا مع إيقاع الفواصل المبنية على الألف

---

(١) حاشية الشهاب ١٩٠/٦ — (٢) سورة طه ٧٠

يقول أبو بكر الرازى فى مسائله : (فإن قيل : كيف قدم هارون على موسى عليهما السلام فى قوله تعالى : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى » وهارون كان وزيرا لموسى عليه السلام وتبعا له . قال الله تعالى : « وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا » ؟

قلنا إنما قدمه ليقع موسى مؤخرا فى اللفظ فيناسب الفواصل ، أعنى رؤوس الآيات(١)) .

وأضاف الخطيب الإسكافى(٢) الحذف إلى التقديم فى هذه الآية لتحقيق هذا التناسب ، فلم يذكر « رب العالمين » كما جاء فى سورتى الأعراف والشعراء مراعاة للفواصل كذلك ، وهو ما تردد فى كتب المفسرين من المتقدمين والمتأخرين . يقول صاحب المنار : (فإن قيل : ولم لم يذكر فى سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم أخر فيها موسى وقدم اسم هارون ؟ فالجواب عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور ، بما لا يعارض غيره مما ورد فى غيرها(٣)) .

إن القول بحذف « رب العالمين » . من سورة طه لمجرد التشاكل إهمال لما بنيت عليه هذه السورة من الإيجاز فى تصوير هذا الحدث ، كما يدل عليه ترتب سجود السحرة وإيمانهم على أمر الله لموسى بالإلقاء ، دون ذكر إلقاء موسى عصاه ، وهو ما تفردت به سورة طه .

أما تقديم هارون على موسى فقد تكاثرت فيه التعليلات كانت أوهاها ما ردّ به الباقلانى على القائلين بالسجع فى القرآن ، وهو أن (إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا ، من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتتبين فيه البلاغة(٤)) لأنه يرد عليه أن مخالفة الترتيب

(١) مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب آى التنزيل ص ٢٢٠ .
(٢) ينظر درة التنزيل ١٧٥
(٣) تفسير المنار ٦١/٩
(٤) إعجاز القرآن ص ٦١ .

تم على وجهها لو وقعت فى إحدى السورتين : الأعراف أو الشعراء ، لمغايرتها لفواصل السورة . أما أن تكون المخالفة فى سورة طه التى تتحقق بها مراعاة الفواصل ، فإن هذا لا يسقط حجة المعارضين .

ومثل هـــذا يرد كذلك على ما قاله أبو السعود ، والبيضاوى ، وغيرهما ، من أن تقديم هارون لكبر سنه ، أو لدفع وهم أن يكون المقصود برب موسى لو قدم هو فرعون لسابق تربيته له ، ويكون ذكر هارون على سبيل الاستتباع(١) . فيقال لهم : ولم لم يراع هذا فى سورتى الأعراف والشعراء ؟ وما الذى استدعى دفع هذا التوهم فى هذا الموضع خاصة ؟

وهذا نفسه يرد على ماذهب إليه الحسناوى من أن هذا التقديم (يصور الحالة النفسية التى كان عليها السحرة لما ظهرت معجزة موسى ، فألقوا سجدا يتلعثمون بالشهادة ، كحال العبد الذى فرح بلقاء راحلته بعد ضياعها فقال من شدة الفرح على ماجاء فى صحيح مسلم : اللهم أنت عبدى وأنا ربك(٢))

فلم ظهر هذا التلعثم فى سورة طه وحدها دون الموضعين الآخرين ؟

اللهم إلا أن يقال : إن تصوير الحدث فى سورة طه بما تضمنه من اختفاء موسى بعد أن أمر الله تعالى بالإلقاء ، وترتيب سجودهم وإيمانهم وقولهم هذا على الأمر بالإلقاء ، وكأن المعركة بينهم وبين الله تعالى لا بينهم وبين موسى وما يوحيه من السرعة فى حسم المعركة وشدة الهزيمة ، وهو ما تميزت به هذه السورة !!

ولكنه لم يقل هذا ولا شيئاً يبرر به هذه المغايرة . ولعلى أكون قد عضدت رأيه بما كان يجب أن يقوله .

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ٦/٢٨ ، والبيضاوى ٦/٢٥١

(٢) الفاصلة القرآنية ص ١٢٠

ولعل أقرب الآراء إلى القبول ماذكره الدكتور محمد أبو موسى معتمدا على وحى السياق، وهو أن بدء السحرة (بمن لبس أفضل دال على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها، وذلك لأن الآية لم تظهر على يد هارون، ولم يكن هو الغالب، وليس فى تقديم موسى الذى لقفت عصاه ما صنعوا شىء يلفت، لأنه هو الأصل، أما تقديم من لا دخل له فى المعجزة التى عليها آمنوا فهو الأمر اللافت، لأنه جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أن سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السحرة بهذه المغالبة، واحتشادهم لها احتشاداً جعل موسى عليه السلام يقول بعد ماجعلوا موعدهم يوم الزينة : « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب[1]) .

وقد بدا لى رأى هو امتداد لما ذكره الدكتور أبو موسى وتوسيع لدائرة السياق، تمتد فيه العناية من التركيز على احتشاد السحرة ومغالبتهم إلى إبراز دور هارون ومشاركته المؤثرة فى الأحداث، ليكون ترتيب ذكرهما على سبيل الترقى بعد أن كان ذكره فى السورتين على سبيل التبعية .

أما لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون فى هذه السورة وحدها فهذا مايفصح عنه السياق، حيث جاء فى دعاء موسى من هذه السورة: (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى[2]) .

فهى السورة الوحيدة التى صرح فيها بهذه المشاركة، وهى أقوى فى إبراز دوره من قوله فى سورة الشعراء « فأرسل إلى هارون[3] » وهى الوحيدة بين السور الثلاث التى طلب فيها من ربه أن يجعله وزيراً . وقال فى هذه السورة : « فأيتاه فقولا إنا رسولا ربك[4] » فأبرز بتثنية الرسول استقلال

---

(١) الإعجاز البلاغى ص ١٩٩
(٢) سورة طه آية ٢٩ - ٣٠
(٣) سورة الشعراء آية ١٣
(٤) سورة طه آية ٤٧

هارون ، فى حين ظهرت تبعيته فى إفراد الرسول من سورة الشعراء « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين(١) » .

واستمراراً لإبراز استقلال هارون ومشاركته المؤثرة فى الأحداث وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى من السحر « قالوا إن هـــذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى(٢) » فتوالت ضمائر التثنية لتؤكد مشاركة هارون لموسى فى مجابهة القوم ، أما فى سورتى الأعراف ، وطه ، فقد أفردوا موسى عليه السلام بوصف السحر ، وتوارت شخصية هارون تماماً فجاء فى سورة الأعراف : (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون(٣) » وفى سورة الشعراء : « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون(٤) » .

كل ذلك جعل من تقديم هارون فى سورة طه إبرازاً لدوره ، وتركيزاً على مشاركته فى الأحداث ، ثم جاء موسى بعده على سبيل الترقى من البدء بالأفضل فالأفضل ، بخلاف ذكره بعد موسى فى مثل سياقاته فإنه يوحى بتبعيته ، ويبدو فى دور المساند لا المشارك .

ومما قيل بالتقديم والتأخير فيه مراعاة للتناسب قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين(٥) » بناء على أن العبادة تتطلب الاستعانة بالمعبود للتوفيق إليها ، أوكما قال السيد الشريف : (العبادة لما كانت تقربهم إلى مولاهم بأفعالهم ، والاستعانة طلب لفعل المولى كان تقديمها على العبادة أولى(٦))

---

(١) سورة الشعراء ١٦ (٢) سورة طه ٦٣

(٣) سورة الأعراف ١٠٩ — ١١٠ .

(٤) سورة الشعراء ٣٤ - ٣٥ (٥) سورة الفاتحة ٤

(٦) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/٦٤ .

فوجد البعض فى تناسب الفواصل السبب فى العدول عن الأصل ، بل عدوا هذه الآية دليلا على قصد القرآن إلى السجع وتغيير نسق الكلام من أجله(١) .

كان الزمخشرى من أوائل من تنبه إلى أن التقديم وراءه سر يتعلق بأغراض النظم (فإن قلت : لم قدمت العبادة على الاستعانة ؟ قلت : لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة عليها(٢)) .

وأضاف أبو السعود : (أن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المتقين(٣)) فالتقديم على رأى الزمخشرى من تقديم العلة على المعلول ، وعلى رأى أبى السعود من تقديم الأشرف . وذهب البيضاوى إلى أن ذكر الاستعانة بعد العبادة من باب التكميل والاحتراس ، فقال : لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحا واعتداداً منه بما يصدر عنه ، فعقبه بقوله « وإياك نستعين » ليدل على أن العبادة أيضا مما لا يتم ولا يستتب إلا بمعونة منه وتوفيق(٤)) .

فجاء تقديم العبادة على الاستعانة ليوافق ترتيب الألفاظ ترتيب معانيها ، فيرشد الترتيب الذكرى للترتيب الخارجى(٥)) .

هذا قليل من كثير فى بيان سر التقديم ، مما حفلت به كتب التفسير ، وهو - فى نظرى - إغراق لا يخلو من التكلف ، وهو إلى جدل المناطقة أقرب منه إلى ذوق أهل البيان . ذلك أن تقديم المفعول على فعلى العبادة والاستعانة بدلالته على الحصر ، يجعل تخصيص الاستعانة بالله وحده أرقى درجة من تخصيصه بالعبادة ، لأن الأولى تخلص من الشرك الظاهر ، والثانية تخلص من

---

(١) انظر المثل السائر ٢/٢١٢ ، والبرهان ١/٦٣

(٢) الكشاف ١/٦٥ (٣) تفسير أبى السعود ١/١٧

(٤) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ١/١٢٢

(٥) حاشية الشهاب ١/١٢٢

الشرك الخفى ، فكم من عابد يخلص لله العبادة ، لكنه لا يستطيع إخلاص الاستعانة به ، على ماتقضى به طبيعة التعجل فى النفس البشرية ورغبتها فى تحقيق ما تصبو إليه ، وما يصاحب ذلك من مشاعر القلق والخوف مما يدفع إلى الركون لغيره سبحانه فى تحقيق أغراض النفس . فكان حصر الاستعانة فى الله وحده مرحلة من مراحل اليقين لا يصل إليها إلا صفوة المتقين ، وصار إخلاص العبادة هو السبيل إلى هذه الدرجة من الثقة بعون الله والاطمئنان إليه ، حتى لا يلوذ العابد فى طلب حوائجه إلى غير مولاه . ولعل الخازن فى أحد وجوه ذكرها رمق هـــذا المعنى بقوله : (إن الاستعانة نوع تعبد ، فكأنه ذكر جملة العبادة أولا ، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها[1]) .

إن القول بأن (العبادة تقرب للخالق تعالى ، فهى أجدر بالتقديم فى المناجاة ، وأما الاستعانة فهى لنفع المخلوق للتيسير عليه ، فناسب أن يقدم المناجى ماهو من عزمه وصنعه على مايسأله مما يعين على ذلك)[2] هذا القول يقيس العلاقة بين الله وخلقه بمقاييس العلاقات بين المخلوقين . فيقدم العبد من العبادة مايستحق به الإعانة . إن طلب العون من الله دعاء ، والدعاء قمة العبادة ، وتركه يستوجب العذاب ، وقد فسرت به العبادة[3] فى قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »[4] وفى الحديث : (الدعاء هو العبادة[5]) فدل عليه السلام

---

(١) لباب التأويل فى معانى التنزيل ١/١٧

(٢) التحرير والتنوير ١/١٨٩

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/٨٦ (٤) سورة غافر ٦٠

(٥) رواه البخارى فى الأدب المفرد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

بهذا الحصر على فضله وشرفه على سائر العبادات . وعلى ذلك فالترتيب جاء فى الآية على الأصل من عطف الخاص على العام .

ومن المواطن التى جعل فيها عكس الترتيب لرعاية الفاصلة ما نقله السيوطى عن ابن الصائغ (تقديم ماهو متأخر فى الزمان نحو « فلله الآخرة والأولى(١) » ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى كقوله تعالى : « له الحمد فى الأولى والآخرة(٢) » .

وبتتبع مواطن وقوع الأولى والآخرة مجموعين فى صورة عطف بالواو ، نجد أن « الأولى » تقدمت على « الآخرة » فى موضع واحد ، هو قوله تعالى : « وهو الله الذى لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون(٣) » وهذا هو الأصل فى الترتيب الوجودى لسبق زمن الدنيا على زمن الآخرة . وهو النهج الذى سلكه النظم الحكيم فى تقديم الدنيا على الآخرة فى كل موطن اجتمعتا فيه أما تقديم الآخرة على الأولى فقد جاء فى ثلاثة مواطن ، الأول قوله تعالى خطاباً للمشركين : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ماتمنى فلله الآخرة والأولى وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى(٤) » .

وتقديم الآخرة فيه على الأولى يتعانق مع سياقه أداء وغرضا ، حيث يتسق التقديم فى هذه الفاصلة مع التقديم فى الفاصلتين قبلها ، الأولى قوله تعالى : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وفيها قدم « من ربهم » على الفاعل « الهدى » تنبيها على أن من شأن المربى الرحيم أن لا يهدى من يربيه إلى غير ماينفعه وينجيه ، والثانية : (أم للإنسان ماتمنى) وفيها قدم الخبر « للإنسان »

---

(١) سورة النجم ٢٥ (٢) الإتقان ٢/٩٩

(٣) سورة القصص ٧٠ (٤) سورة النجم ٢٣ - ٢٦

وهو بدلالته على التخصيص يحقق الغاية من الإنكار والتهكم بهذا المخلوق الذى يتجاوز قدره، ويتصرف فى خلق الله تصرف الخالق، ويفتات على ربه، فيختار لله أدنى الجنسين ويختص نفسه بأشرفهما. «ألكم الذكر وله الأنثى». ثم جاء تقديم الآخرة متوافقاً مع سياقه فى الأداء، ومحققا الغرض فى المبادرة برد أطماع هذا الإنسان الذى تجاوز فى أمانيه وغلا، فزعم أنه سيفلت فى الآخرة من عذاب ربه بشفاعة أصنام عبدها من دون الله. فلما كانت هذه الأمنية متعلقة بالآخرة قدمت، مسارعة إلى قطع هذه الأمانى وتكذيبها بحصر ملكيتها مع ملكية الدنيا فى الله وحــده، وهو ما كشف عنه الالوسى فى قوله: (وقدمت الآخرة اهتماما برد ما هو أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى: «وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً» وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية[1]).

والموطن الثانى الذى تقدمت فيه الآخرة على الاولى قوله تعالى حديثاً عن موسى وفرعون: «هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى»[2].

الأظهر فى تفسير الآخرة والاولى هنا ماروى عن ابن عباس ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل من أنهما كلمتا فرعون «ماعلمت لكم من إله غيرى[3]» و«أنا ربكم الأعلى» وهو الوجه الذى قدمه الرازى فى تفسيره ثم قال: (والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى فى الحال، بل

(١) روح المعانى ٥٨/٢٧ (٢) سور النازعات ١٥ - ٢٥
(٣) سورة القصص ٣٨

أمهله أربعين سنة ، فلما ذكر الثانية أخذ بهما ، وفى هذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل(١)) .

وبهذا تتقدم الآخرة تحقيقا لغرض النظم فى الإشارة إلى أن قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » هو السبب فى إسراع الله بإنزال العقاب به ، كما يدل عليه حرف التعقيب ، إلى جانب الدلالة على أنها أشنع وأفظع من الأولى ، لتفاوت ما بين إنكار العلم بوجود إله غيره ، وبين تصريحه بالربوبية الموصوفة بغاية التعالى والتفرد .

أما الموطن الثالث : وهو قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى(٢) » .

فقد جاء تقديم الآخرة فيه استجابة لما بنيت عليه السورة من التهديد والإنذار بسوء العاقبة لمن كذب وأعرض ، والتنكيل به فى الآخرة ، وهو ما ينبىء عنه افتتاح السورة بالقسم ، وبدئه بالليل الذى يخيم بظلامه على دنيا الناس ، تأكيدا على اختلاف مساعى الناس وتفرقهم ، وما يترتب عليه من اختلاف جزائهم ، ولما كان الغرض هو إنذار المستهينين بعذاب الله ، المتمادين فى ضلالهم ، كان تقديم الآخرة هو الأنسب بهذا السياق المنذر المتوعد ، لأنها زمن إنزال العقوبة بهم ، ولهذا أعقبها قوله تعالى: «فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى » مقدما جزاء الأشقياء على جزاء الاتقياء ، مكتفيا فى جزائهم بإبعادهم عن النار ، على خلاف الغالب فى القرآن من تقديم جزاء المؤمنين . مثل هذا السياق لا يفى بحق البلاغة فيه إلا تقديم الآخرة ، فإذا تحقق معه الانسجام الصوتى ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٤٤/٣١ — (٢) الليل ٥ - ١٣

وتناسب الايقاع فى الفواصل ، فذلك ما لايتم على هذا الوجه من الكمال فى غير هذا النظم المعجز .

تقول الدكتورة بنت الشاطىء . (ونلتفت إلى ملحظ بيانى فى الآية ، هو العدول عما هو مألوف من تقديم الأولى على الآخرة، وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى ، وإنما اقتضاه المعنى فى سياق البشرى والنـــذير ، إذ الآخر هى دار القرار ، وكذلك قدمت الأخرى على الأولى فى سياق البشرى للمصطفى بآية الضحى « وللآخرة خير لك من الأولى » كما قدمت الآخرة على الأولى فى سياق الوعيد لفرعون ، إذ أدبر وتولى ، « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » بآية النازعات . وفى مثل هذا السياق من الوعيد تتقدم الآخرة على الأولى فى آية الليل)(١) .

وهو كلام طيب لا يعيبه إلا قوله تعالى « وللآخرة خير لك من الأولى » إلى الآيات الثلاث ، إذ لتقديم فيها أوجبته طبيعة أسلوب التفضيل ، الذى يلزم فيه تقديم المفضل على المفضل عليه ، وحديث البلاغة فيما تجيز قواعد اللغة تقديمه وتأخيره ، لا فيما يتعين تقديمه لأداء أصل المعنى .

ومما قيل فيه بتقديم المؤخر زمانا للفاصلة ، قوله تعالى : « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى(٢) » فقدم موسى وهو متأخر وجودا على إبراهيم عليهما السلام ، فى حين جاء على الأصل فى قوله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى(٣) » .

والقول بالتقديم لرعاية الفاصلة يتجاهل الفروق بين أغراض النظم ، واختلافات السياق ، فلو أن الغرض هو مراعاة الفواصل وحدها ، لقيل فى سورة النجم : « أم لم ينبأ بما فى صحف إبراهيم وموسى » وفاء بحق الفواصل ، وهى متحدة فى السورتين دون اللجوء إلى تغيير النسق بالتقديم والتأخير .

---

(١) التفسير البيانى للقرآن ١١٢/٢ . (٢) سوره النجم ٣٦ - ٣٧

(٣) سوره الأعلى ١٨ - ١٩

وحين نتأمل سياق الآيتين ، نجد أن آية الأعلى وقعت تقريراً لحقائق التوحيد والنبوة ، وما تبعها من المجازاة على الكفر والإيمان ، تأكيداً على أن هذه هى أصول الشرائع كلها ، وملتقى رسالات المرسلين ، يدلك على ذلك البدء بالتوكيد ، والعموم المفهوم من قوله « لفى الصحف الأولى » قبل تخصيص صحف إبراهيم وموسى ، وتخصيصهما بالذكر لما أنهما الأشهر لدى العرب ومن ساكنهم من أهل الكتاب . فالخطاب هنا عام جرى فيه تقديم إبراهيم على الأصل فى الترتيب الوجودى .

أما آية النجم فالخطاب فيها موجه أصالة إلى رجل من المشركين زعم أنه يحمل عن غيره أوزاره يوم القيامة ، كما يتضح من الحوار : « أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى أعنده علم الغيب فهو يرى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى(١) » فأحيل فى علمه على الأشهر المتداول بين العرب من كتب السماء ، وهى صحف إبراهيم وموسى ، وقدم ماهو أشهر من صحف النبيين الكريمين ، لأن علم العرب بصحف موسى أكثر من علمهم بما فى صحف إبراهيم ، بعد أن طال العهد بها ، ومال العرب بشركهم عن الحنيفية ، بخلاف صحف موسى التى يستمعون إليها من أهل الكتاب الذين يساكنونهم فى الجزيرة ، فقدم القرآن للمخاطب ماهو به أعلم ، وتداوله لديه أشهر . ذلك ما تنطق به أسباب النزول على ماروى أنها (نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وذلك أنه سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس إليه ، ووعظه رسول الله ، فقرب من الإسلام ، وطمع النبى عليه السلام فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه ، وأنا أتحمل لك بكل شىء تخافه فى الآخرة ، لكن على أن تعطينى كذا وكذا ، من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما همّ به من الإسلام ، وضل ضلالا بعيداً ، وأعطى بعض

---

(١) سورة النجم ٣٣ — ٣٧ .

ذلك المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عنه وشح ، فنزلت الآية فيه(١)) .

لجرى التقديم على ماهو أقرب لدى المخاطب وأشد ظهوراً عنده تسجيلا عليه . وإلى هذا ذهب أبو السعود فى تعليل التقديم قائلا : (وتقديم موسى لما أن صحفه التى هى التوراة عندهم أشهر وأكثر(٢)) .

ومما خفى سر الترتيب فيه قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد(٣) » فتقدمت البطون على الجلود ، مخالفة للظاهر من أن الصهر يتناول الجلود أولا ، ثم يفضى إلى البطون ، فعلل الشهاب تأخير الجلود بثلاثة أوجه ، أحدها مراعاة الفواصل ، وقدمه على الوجهين الآخرين ، فقال : (وتأخيره عنه إما لمراعاة الفاصلة ، أو للإشعار بغاية الحرارة ، بإيهام أن تأثيرها فى الباطن أقدم من تأثيرها فى الظاهر ، مع أنه على العكس وقيل : التأثير فى الظاهر ظاهر غنى عن البيان ، وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ، ولذا قدم الباطن، لأنه المقصود الأهم ، فلا يتوهم أن حق النظم تقديم الجلود(٤)) .

ولا أرى كيف غاب عنه أمر التقديم كما غاب عن غيره ممن قالوا إن البطون مقدمة من تأخير(٥) مع أن المتأمل لنظم الآية لا يخفى عليه أن ترتيب الألفاظ جاء على وفق ترتيب المعانى دون مخالفة للأصل ، لأن الحميم يصب من فوق الرأس ، فينفذ منها إلى البطن ، ويبدأ فى صهرها حتى ينتهى إلى الجلد، كما يشهد بذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخرج عبد بن حميد

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ١٥/٢٧٦

(٢) تفسير أبى السعود ٨/١٦٣ (٣) سورة الحج ١٩ - ٢١

(٤) حاشية الشهاب ٦/٢٨٩

(٥) انظر تفسير أبى السعود ٦/١٠١ ، والبيضاوى ٦/٢٨٩ ، وروح المعانى ١٧/١٣٤ .

والترمذى ، وصححه . وعبد الله بن أحمـد فى زوائد الزهد . وجماعة عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحميم ليصب على رؤوسهم ، فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت مافى جوفه حتى يمرق إلى قدميه ، وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان(١)) فلا يتصور أن يبدأ الصهر من الجلود ، إلا إذا صب الحميم على جلودهم ، أما وأنه يصب على الرؤوس فينفذ منها إلى البطون ، فلا مجال للقول بالتقديم والتأخير ، ولولا أن القرآن قصد إلى حركة الحميم داخل الأجسام ، والنفاذ من الرأس إليها مباشرة ، لقال : يصب عليهم الحميم ، وحينئذ يمكن أن يقال إن الجلود حقها التقديم .

ثم إن التعذيب من الظاهر دل عليه القرآن بقوله « قطعت لهم ثياب من نار » وهذا هو العذاب الظاهر للجسد ، فكان صب الحميم فى بطونهم نوعا آخر من التعذيب داخل الأجساد . وقد أحسن أبو حيان تصور المعانى بما يواكب ظلالها فى الألفاظ ، فقال : (ولما ذكر ما يعذب به الجسد ظاهره، وما يصب على الرأس ، ذكر ما يصل إلى باطن المعذب ، وهو الحميم الذى يذيب مافى البطون من الحشا ، ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر وهو الجلد ، فيؤثر فى الظاهر تأثيره فى الباطن(٢)) .

ومما تداولته الاقلام مثالا لرعاية الفواصل وتغيير النظم من أجلها ، قوله تعالى : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور لله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير(٣) » قيـل : إن تقديم الإناث على الذكور وهن الأدنى

---

(١) روح المعانى ١٣٤/١٧ (٢) البحر المحيط ٣٦٠/٦

(٣) سورة الشورى آية ٤٨ - ٥٠

منزلة ، جاء لمشاكلة رؤوس الآى ، بدليلين : الأول أنه عاد فقدم الذكور حين لم يكن فاصلة ،على الأصل من تقديم الأشرف .والثانى تعريف الذكور لكى يتحقق التناسب مع الفواصل «كفور» و «قدير» ولولا هذا التعريف لخالف بالتنوين نسق الفواصل .

وبتتبع ورود الجنسين متعاطفين فى الذكر الحكيم، مُعَبَّراً عنهما بالذكر والأنثى تارة ، والرجال والنساء تارة ثانية ، وبالبنات والبنين ثالثة، أحصيت خمسة عشر موضعا قدم فيها الذكر ، على الأصل من تقديم الأهم بالذات ، لما أن الرجل بحكم تكوينه وقدراته هو المسئول عن توجيه حركة الحياة ، فهو الأصل والأجدر بالتقديم .

وقدمت الأنثى فى مواضع خمسة لأهميتها فى سياقاتهـــا ، ومقتضيات ومقاماتها ، وهو ضرب من الاهتمام بالمقدم لا لذاته ، بل لدواعى الأحوال والأغراض ، وذلك مانبه إليه الشهاب : (والاهتمام قد يكون مما يقتضيه الذات ، وقد يكون مما يقتضيه المقام والسياق(١)) .

والمتأمل لسياق آية الشورى موضع الحديث ، يطالعه هذا الخطاب الحانى على رسول الله،وهو يواجه عنت قومه وصلفهم ، تأنيسا له ، وإزالة لهمومه ، فما عليه إن لم يؤمنوا ، وقد أدى مهمته وبلّغ رسالة ربه ، وذلك يدلك على مدى العناد والإصرار على الكفر ، كما ذيلت به الآية الأولى «فإن الإنسان كفور» ثم أعقبه ببيان طلاقة القدرة ، واختصاص الله تعالى بملكية ماخلق ، والتصرف فيه بمشيئته القاهرة لمشيئة من خلق ، فكان البدء بما يشاؤه الله ويكرهه الإنسان أدلّ على هذه القدرة ، وقهر هؤلاء الذين يحادون الله فى ملكه ، لذا بدأ بالجنس الذى جرت عادة المخاطبين على كراهيته ، وعده ضربا من ضروب البلاء ، إشارة إلى أنه يفعل ما يريده

---

(١) حاشية الشهاب ٧/٤٢٨ .

هو لا ما يريده خلقه . وهذا ما كشف عنه بدقة بالغة جار الله الزمخشرى : (فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل مايشاؤه ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة مايشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلى الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، وأخر الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقدم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : « ذكرانا وإناثا » كما قال : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى(1) » « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى(2) »)(3) .

والمواضع الأربعة الأخرى قدمت فيها البنات على البنين ، وهى قوله تعالى : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون(4) » وقوله : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين(5) » وقوله : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون(6) » وقوله : « أم له البنات ولكم البنون(7) » وفيها تقدم الأهم فى سياقه كذلك ، إذ أن محط الإنكار فيها أن يخصوا الله تعالى بأدنى الجنسين ، وتلك أقبح وأشنع مقالات الكفر ، حيث لم يكتفوا بأن ينسبوا إلى الله الولد ، حتى نسبوا إلى الله منه أخس الجنسين ، ومن كانوا يعزفون عنه ويحتقرونه ، على ماصوره الله تعالى فى رده عليهم « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين »(8) » .

---

(1) سورة الحجرات آية ١٣
(2) سورة القيامة آية ٣٩
(3) الكشاف ٣/٤٧٥
(4) سورة الصافات آية ١٤٩
(5) سورة الزخرف آية ١٦
(6) سورة النحل آية ٥٧
(7) سورة الطور آية ٣٩
(8) سورة الزخرف آية ١٦ - ١٨

فلما كانت نسبة البنات إلى الله تعالى هى محط الإنكار ، ونسبتهم البنين إلى أنفسهم زيادة فى تفظيع مقالتهم ، قدم الأهم وهو البنات .

ومما خولف فيه النظم بتقديم غير الأشرف ، لكونه أهم فى سياقه ، وتحقق معه رعى الفواصل ، قوله تعالى : « وكذلك أخـــذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق(١) » .

جاءت هذه الآيات تذييلا لقصص أقوام كذبوا بأنبيائهم فحلت بهم لعنات السماء ، وأنزل الله بهم من العقاب فى العاجـــلة ما صاروا به مثلا للمكذبين ، ثم توعدهم الله فى الآجلة بعذاب أشد ، فى هذا الجو الذى تحيط به نذر العذاب ، قدم الأشقياء وجزاؤهم على السعداء وجزائهم ، على غرار قوله تعالى : « فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى »(٢) .

تقديم « شقى » هو من تقديم الأهم فى سياقه ، وعكس ذلك يذهب بجلال النظم ، ويحجب دخان الانتقام ، وتخفت معه أجراس الأصوات المنذرة المتوعدة ، وليس من أجل تناسب المقاطع كان التقديم ، وإن تعانق هذا التحدر فى الإيقاع مع تحدر المعانى وتآخيها ، فيما يشهد بإعجاز النظم الحكيم . لو أن الفاصلة وحدها هى التى استدعت هذا النسق ، لعاد النظم الكريم فى غير الفاصلة إلى تقديم الأشرف ، فبدأ بجزاء السعداء ، وقال : فأما الذين سعدوا ففى الجنة .. وأما الذين شقوا ففى النار ، على طريق اللف والنشر المشوش . لكن الغرض إلى وصل حديث الأشقياء بهلاك الأمم

---

(١) سورة هود آية ١٠٢ ، ١٠٦ (٢) سورة الليل آية ١٤ - ١٧ .

السابقة ، هو الذى استوجب تقديم ما تدم ، وهو شائع فى غير الفواصل ، كقوله تعالى : « هو الذى خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير[1] » .

وقد أحسن أبو السعود حين قال « وتقديم الشق على السعيد ، لأن المقام مقام التحذير والإنذار[2] » .

لكن العجيب أن أبا السعود الذى تنبه إلى هذا السر فى التقديم يقول فى قوله تعالى : « فألهمها فجورها وتقواها[3] » (وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل)[4] .

وأنت حين تنعم النظر فى أعطاف السورة ، تجد المولى يقسم فيها بظواهر الكون على فلاح من طهر نفسه ، وباعد بينها وبين الفجور ، وضياع من أوبقها بالمعاصى . والحديث عن النفس فى القرآن حديث المقوم لها بمقارفة الذنوب ، والميل إلى الشهوات ، واتباع الهوى ، كما هو صريح قوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى[5] » ، وقوله « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى[6] » ، فتقديم الفجور بها هو الأولى ، لأنه هو الغالب على طبعها ، إلا من رحم الله وهداه إلى كبح جماحها ، وتطهيرها بالتوبة والطاعة . هذا إلى جانب أن السورة قد مضت بعد ذلك فى حديث ثمود وطغيانهم ، ومحادتهم لنبيهم وربهم إلى أن حل بهم عذاب الله « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها[7] » .

فحرىٌ بسورة هذا سياقها أن يتقدم فجور النفس على تقواها ، ليلتئم مع فجور المكذبين .

---

(١) سورة التغابن آية ٢

(٢) تفسير أبى السعود ٦/٢٤١

(٣) سورة الشمس آية ٨

(٤) تفسير أبى السعود ٩/١٦٤

(٥) سورة يوسف آية ٥٣

(٦) سورة النازعات آية ٤٠

(٧) سورة الشمس آية ١٤ - ١٥

ومن خفى ضروب التقديم فى الفواصل، ما نراه فى مشتبه النظم من تقديم لفظ على آخر فى موطن، وعكس الترتيب فى موطن آخر، مما يبدو لأول وهلة أن ليس لهذه المغايرة غرض سوى توافق الفواصل.

من ذلك قوله تعالى حكاية لما دار بين زكريا وربه: «قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار(١)» فقدم العشى. وعكس ذلك فى قوله تعالى: «قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا(٢)».

وقد حاولت أن أجد فيما قرأت من يستفتح على فى بيان سر التقديم والتأخير فى الموضعين فلم أجد، واحتجب عنى هذا السر، حتى كدت أسلم بأنه ليس وراء ذلك من غرض سوى تحقيق التناسب فى الفواصل. لكن الله تعالى هدانى بعد طول توقف إلى أن هذه المغايرة استدعاها تغيير الخطاب وذلك أن المخاطب المأمور بالتسبيح فى سورة آل عمران هو زكريا عليه السلام، والمخاطب المأمور بالتسبيح فى سورة مريم هو من أرسل إليهم زكريا، وبين الخطابين والمقامين يقع الإعجاز فى ترتيب النظم، فزكريا قدم معه العشىّ، وتسبيحه فيه يستتبع قيام الليل، والانقطاع إلى الله تعالى فى هذا الوقت الذى يصعب على غير المقربين مواصلة العبادة فيه، ولذا أمر النبى عليه السلام بقيام الليل، وقدم على تسبيح النهار فى قوله تعالى: «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا(٣)»، وقوله «إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا إن لك فى النهار سبحا طويلا(٤)» فنبه إلى أن العبادة بالليل أشد، ولا يواصلها إلا أصحاب العزائم من المقربين، أما غير الأنبياء والمقربين فإن

---

(١) سورة آل عمران آية ٤١
(٢) سورة مريم آية ١١
(٣) سورة المزمل آية ١
(٤) سورة المزمل آية ٦ - ٧

جل تسبيحهم وصلاتهم بالنهار ، على قدر مايطيقه عامة المؤمنين ، لذا قدم ماهو الغالب على عادة الناس فى خطاب زكريا لقومه .

ومما بدا فيه أن التغيير فى ترتيب النظم مرجعه المحافظة على السجع ،قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور(١) » .

فقد بدأ بتقديم غير الأشرف وهو الأعمى ، وجرى على هذا النهج فى تقديم الظلمات على النور ، ثم عدل عن هذا الترتيب ، فقدم الأشرف وهو الظل على الحرور ، فكان هذا العكس فى الترتيب دافعا إلى القول بأن هذه المغايرة مرجعها إلى المحافظة على السجع ، إذ لو قدم الحرور لذهب التناسب .

وقد حمل الفخر الرازى على من يقول إن القرآن يقدم ويؤخر لتوافق رؤوس الآى ، وعلل المخالفة فى الترتيب بأغراض معنوية ، فقال : (وقدم الأشرف فى مثلين ، وهو الظل والحرور ، وأخره فى مثلين ، وهو البصر والنور ، وفى مثل هذا يقول المفسرون إنه لتوخى أواخر الآى ، وهو ضعيف ، لأن توخى الأواخر راجع إلى السجع ؛ ومعجزة القرآن فى المعنى لا فى مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة ، والمعنى فيه صحيح ، واللفظ فصيح ، فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول : الكفار قبل النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فى ضلالة ؛ فكانوا كالعمى ، وطريقهم كالظلمة ، ثم لما جاء النبى صلى الله عليه وسلم وبيّن الحق ، واهتـــدى به منهم قوم فصاروا بصيرين ، وطريقهم كالنور ، فقال : وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ، ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان فى

---

(١) سوره فاطر ٢٠ - ٢٢

زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المآل والمرجع ، قدم مايتعلق بالرحمة على مايتعلق بالغضب ، لقوله فى الإلهيات : سبقت رحمتى غضبى ، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى ، وشابه الأموات فى عدم إدراك الحق من جميع الوجوه ، فقال : « وما يستوى الأحياء » أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله ، والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها ، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن ، فأخرهم عن المؤمنين)(١) .

لقد كان الرازى على حق فى رفض أن يكون تقديم الظل متمحضا لغرض لفظى هو مراعاة السجع وحده ، وإن كنت أرى أنه مقصد مساوق للمعانى والأغراض ، والدليل على ذلك أن القرآن غاير الترتيب فيما يشبه هذا الموضع ، ولم تكن المغايرة فى الفواصل ، حتى يقال إن تغيير الترتيب لتحقيق السجع ، وذلك قوله تعالى : « ومايستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء(٢) » فقدم غير الأشرف وهو الأعمى ، ثم غاير الترتيب ، فقدم الأشرف ، وهو « الذين آمنوا » ولم يستدع ذلك ضرورة سجع .

لكننى لا أستريح إلى الإبعاد فى جعل الترتيب وجوديا ، على أن العمى يمثل الكفر قبل بعثة النبى ، والأموات يمثل الكفر بعد بعثته ، ولا إلى تعليل تقدم الظل يسبق الرحمة للغضب ، لأن الآيات مسوقة فى مقام التهديد والوعيد ، ومثله يستدعى المبادرة بما يدل على الانتقام ، لإدخال الروع فى قلوب المستكبرين .

والشهاب الخفاجى يرى أن تقديم الظل (ليكون مع ما قبله على نمط واحد ؛ فإن العمى ، والظلمة ، والظل متناسبة ، مع مافيه من رعاية الفواصل(٣))

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٧/٢٦ (٢) سورة غافر آية ٥٨

(٣) حاشية الشهاب ٧ , ٢٢٣

والتناسب الذى يعنيه هو اشتراك الثلاثة فى احتجاب الضوء عنها ، فلهذا التناسب قدم الظل كما قدم العمى والظلمة ، ولم يقل لنا لماذا قدم الأحياء؟

وحين نتتبع نفى استواء الأشياء فى القرآن ، نجده قد ورد خمس مرات فى المقارنة بين الأعمى والبصير ، وتقدم الأعمى فيها جميعا ، وقرن بها الظلمات والنور فى موضعين اثنين، وتقدمت فيهما الظلمات . وهذا التقديم هو الغالب فى المقارنة بين المتناقضات ، حين يكون الحديث منصبا على تهجين ذوى الأفعال الدنيئة ، والحط من شأنهم ، فينفى استواء الأدنى بالأعلى ، قصداً إلى إظهار قبحه بذكر نقيضه ، فكما أن « الضد يظهر حسنه الضد » هو كذلك يظهر قبحه . « قل لا يستوى الخبيث والطيب(١) » « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة(٢) » « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله(٣) » فأنت ترى تقدم الأدنى ، لأن الحديث فى بيان سوئه .

ولما كان السياق فى الآيات التى نحن بصددها فى ذم المشركين والاستخفاف بعقولهم حين يدعون مالا يملك شيئا « والذين تدعون من دون الله مايملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم(٤) » كان البدء بنفى استواء هؤلاء الذين أعمى الله قلوبهم بمن هداهم الله إلى الإيمان ، كما لا يستوى ظلام الشرك ونور الإيمان . ثم كانت المغايرة فى المقابلة بين الجزاءين ، بتقديم الثواب المتمثل فى الظل ، على العقاب المدلول عليه بالحرور ، إيماء إلى أن الله تعالى يعجل الثواب ، ويؤجل العقاب ، على ماسبقت به كلمته ، وهى التى ختمت بها السورة « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٠
(٢) سورة الحشر آية ٢٠
(٣) سورة النساء آية ٩٥
(٤) سورة فاطر آية ١٣ - ١٤

إلى أجل مسمى[1] ، فقدم فى اللفظ ماهو معجل وأخر ما هو مؤجل ، واطرد ذلك فى تقديم الأحياء على الأموات ، لأن الحياة ثمرة الهداية ، وهى نوع من الثواب ، والموت المعبر به عن التمادى فى الكفر ضرب من العقاب ، لأنه تخل من الله عن الكافر ، وحجب أنوار الهداية عن قلبه .

أما حينما يكون الحديث عن الصالحين ، وتعــديد مناقبهم ، فإن نفى الاستواء يقدم فيه الأشرف ، ليتصل الثناء بالمثنى عليه ، ويكون ذكر مقابله زيادة فى إظهار فضله كما فى قوله تعالى : « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[2] . فكأنه قال : لا يستوى هؤلاء العابدون العالمون وأولئك الجاهلون الضالون .

---

(١) سورة فاطر آية ٤٥ (٢) سورة الزمر آية ٩

ترتيب الصفات

من الأدلة التي ساقها ابن الصائغ(١) على القصد إلى تحقيق التناسب فى الفواصل ؛ ومخالفة الأصول فى سبيل ذلك ، تقديم الأبلغ من الصفات ، على غير ماتقضي به قاعدة الترقى من تأخير الأبلغ ،ومثل لذلك بقوله تعالى : « الرحمن الرحيم »(٢) وقوله « رءوف رحيم »(٣) .

وقد أطال المفسرون الوقوف لبيان الفرق بين الرحمن والرحيم ، وسر تقديم الرحمن ، وهم يكادون يجمعون على أنهما من أمثلة المبالغة فى الرحمة ، وأن صفة الرحمن أبلغ ، بحكم أنها أكثر مبنى فهى أغزر معنى ، ولذا خص الله تعالى نفسه بهذه الصفة حتى لا يصح أن يوصف بها أحد من خلقه ، بخلاف صفة الرحيم التى وصف بها رسوله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(٤) ووصف بها المؤمنين « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »(٥) . لكنهم تغايرت آراؤهم فى سر تقديم الرحمن ، وأشهرها ماقاله الزمخشرى : (فإن قلت : لم قدم ماهو أبلغ من الوصفين على ماهو دونه ، والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، كقولهم : فلان عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وجواد فياض ؟ قلت : لما قال الرحمن ، فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها ، أردفه « الرحيم » كالتتمة والرديف ، ليتناول مادق منها ولطف)(٦) .

---

(١) انظر الاتقان ٢/١٠٠ .

(٢) سورة الفاتحة آية ٢

(٣) سورة النور آية ٢٠ .

(٤) سورة التوبة آية ١١٧

(٥) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٦) راجع الكشاف ج ١/٤٥ .

(كان القياس تقديم أدنى الوصفين ، لأن فى تقديم أعلاهما ، ثم الإرداف بأدناهما نوعا من التكرار ، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول مادونه ، فذكره بعده غير مفيد)(١) لذلك كان عكس مايقضى به القياس بحاجة إلى البيان ، فخص الزمخشرى الرحمن بعظائم النعم وجلائلها ، والرحيم بما دق منها ولطف ، فكان ذكر الرحيم على سبيل التتميم حتى لا يتوهم أن محقرات الأمور لا تليق بذاته ، فيحتشم عنه من سؤالها)(٢) .

إلا أن تخصيص الرحمن بجلائل النعم ، والرحيم بدقائقها مما لا دليل عليه ، بل إن الله تعالى كثيرا مايذكر جلائل النعم وأصولها ، ويعقبها بصفة الرحيم وحدها ، فقد ذكر الله تعالى جليل نعمه على الإنسان فى مطلع سورة النحل ، وعدد منها خلق الملائكة ، والسموات والأرض . وخلق الإنسان ، وما سخره له فى الأرض من الأنعام والخيل والبغال والحمير ، وما أنزل من السماء من ماء أنبت به الزرع والنخيل والأعناب ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والفلك والبحار ، والجبال والأنهار ، ثم عقب ذلك كله بقوله « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم »(٣) .

ولا شك أن هذه نعم جليلة ، وتسخيرها للإنسان دليل على بالغ رحمة الله به ، ومع ذلك عللت بصفة « الرحيم » .

وهذا الدليل نفسه يرد به على ماحكاه الراغب فى المفردات : (وقيل إن الله هو رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة ، ذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة يختص بالمؤمنين)(٤) فتعقيب هذه النعم التى شملت الكافر والمؤمن بالرحيم يضعف هذا القول . وكما أن الله تعالى خص الرحمة بالمؤمنين فى قوله تعالى : هو الذى يصلى عليكم وملائكته

---

(١) الانصاف ١/٤٥ (٢) حاشية السيد الشريف ١/٤٥ .
(٣) سورة النحل آية ١٨ (٤) المفردات ١٩٢ .

ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما »(١) فإنه عم بها الناس جميعا ، فيما هيأه لهم من سبل العيش فى الدنيا « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما »(٢) .

خير ماقيل فى تعليل الجمع بين الوصفين بما يظهر بلاغة النظم الحكيم فى تقديم الرحمن ما قاله ابن القيم : (وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف ، والثانى للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله « وكان بالمؤمنين رحيما » « إنه بهم رءوف رحيم » ولم يجىء قط رحمن بهم ، فعلم أن « رحمن » هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته ، وهذه نكتة لاتكاد تجدها فى كتاب ، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها)(٣).

تأسيسا على ذلك قدمت صفة الذات على صفة الفعل ، لأن صفة الفعل ناشئة عنها ، فهى بمنزلة المسبب من السبب . ولعل ذلك هو الذى استلهمه الشيخ الطاهر بن عاشور فى قوله : (وتقديم الرحمن على الرحيم ، لأن الصفة الدالة على الاتصاف الذاتى أولى بالتقديم فى التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها)(٤) .

أما تقديم الرءوف على الرحيم فى مثل قوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم »(٥) فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن تقديم الرءوف وهو الأبلغ ،

---

(١) سورة الاحزاب آية ٤٣
(٢) سورة الاسراء آية ٦٦
(٣) بدائع الفوائد ١/٢٤
(٤) التحرير والتنوير ١/١٧٢
(٥) سورة البقرة آية ١٤٣

للمحافظة على تناسب رءوس الآى[1] ومنهم البيضاوى الذى رد عليه الشهاب بقوله : (هو بناء على تفسير الرأفة بأشد الرحمة ، وحينئذ المناسب رحيم رءوف ، وفيه نظر من وجهين : الأول أن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع ، كما هنا فى « رحيم وتعملون » فذلك حاصل على كل حال ، والثانى أن الرأفة حيث وردت فى القرآن قدمت ، ولو فى غير الفواصل، كما فى قوله تعالى : « رأفة ورحمـــة ورهبانية ابتدعوها » فى وسط الآية . والذى غره كلام الجوهرى وهو عندى ليس بصواب ، فإن الرأفة معناها الشفقة واللطف ، والرحمة الإنعام ، ورتبتها التقديم ، كما قيل : الإيناس قبل الإبساس . وعليه استعمال العرب قال قيس بن الرقيات :

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

وانظاره كيف أوضح معناها بالتقابل ، ومثله كثير فى كلام العرب)[2] .

لقد أحسن الشهاب كل الإحسان فى الوجه الثانى الذى رد به كلام البيضاوى ، لكننا لا نسلم له بالوجه الأول ، لأن الفواصل فى الآيات وإن لم تكن متحدة الروى ، فإنها متقاربة ، والميم والنون حرفان متقاربان ، وعليهما بنيت معظم فواصل القرآن ، وإستبدال الفاء بالميم يذهب بتوافق المقاطع وجمال موسيقاها .

يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى : (وما هـــذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها)[3] .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٢٧ ، والبيضاوى ٢/٢٥٢

(٢) حاشية الشهاب ٢/٢٥٢

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢١٦

فالفواصل التى تنتهى بالميم والنون لها وقع موسيقى لايكون لحرفين آخرين سواهما إلا أن يتحد الروى ، فالقول بأن الفاء مع النون كالميم معها لايتفهم طبيعة الحرفين ، وعلى هـــذا التوافق الموسيقى بين النون والميم بنى القائلون بتأخير الرحيم للفواصل رأيهم : (وتقديم « رءوف » ليقع لفظ « رحيم » فاصلة ، فيكون أنسب لفواصل هـــذه السورة ، لابتناء فواصلها على حرف صحيح ممدود ، يعقبه حرف صحيح ساكن ، ووصف رءوف معتمد مع ساكنه على الهمز ، والهمز شبيه بحروف العلة ، فالنطق به غـــير تام التمكن على اللسان ، وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا أشبه حروف اللين ، فلا يتمكن عليه سكون الوقف)(١)

لكن ذلك لايعنى أننا نوافق على أن التقديم لمراعاة الفاصلة وحدها ، لأن مثل هذا يعاب على الساجع . يقول ابن سنان : (والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأصله ، وورد ليصير وصلة إليه)(٢) .

أفيعاب هذا على الناس فى سجعهم ونقول به فى النظم المعجز ؟ !

لقد أنكر الإمام محمد عبده القول بمراعاة الفواصل فى هذه الآية أشد الإنكار فقال : (إن كل كلمة فى القرآن موضوعة فى موضعها اللائق بها ، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة ، لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة ، كما قالوا فى كثير من السجع والشعر : إنه قدم كذا ، وأخر كذا لأجل السجع ، ولأجل القافية ، والقرآن ليس بشعر ، ولا التزام فيه للسجع ، وهو الله الذى لاتعرض له الضرورة ، بل هو على

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٦ (٢) سر الفصاحة ١٦٤

كل شيء قدير، وهو العليم الحكيم الذى يضع كل شيء فى موضعه، ثم قال: (وعندى أن الرأفة أثر من آثار الرحمة، تشمل دفع الألم والضر، وتشمل الإحسان، فذكر الرحمة هنا فيه معنى التعليل والسببية، وهو من قبيل الدليل بعد الدعوى، فهو واقع فى موقعه كما تحب البلاغة وترضى)(١).

هذا كلام طيب وبمثله يجب أن ننظر إلى فواصل القرآن، لكن صاحب المنار الذى أثبت هذا الكلام الممتع خالفه أحيانا، ففسر التقديم والتأخير برعى الفواصل، كما أشرنا إلى ذلك فى قوله تعالى: «رب هارون وموسى».

ومما بدا فيه أن التقديم جرى على غير الأصل لمشاكلة رؤوس الآى، تقديم السميع على العليم. يقول أبو حيان فى قوله تعالى: «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم»(٢)! مناسبة هاتين الصفتين أن كلا من الإيمان وضده مشتمل على أقوال وأفعال، وعلى عقائد ينشأ عنها تلك الأقوال والأفعال، فناسب أن يختم ذلك بهما، أى وهو السميع لأقوالكم، العليم بنياتكم واعتقادكم. ولما كانت الأقوال هى الظاهرة لنا، الدالة على ما فى الباطن قدمت صفة السميع على العليم، ولأن العليم فاصلة أيضا)(٣).

فهو يشير بذلك إلى أن الترتيب الوجودى يقضى بتقديم صفة العليم، لأنها إحاطة بالعقائد، والسميع صفة يترتب عليها العلم بالأقوال الناشئة عن العقائد، فحقها أن تقع بعدها، لكن جاء النظم بعكس هذا الترتيب، مراعاة لعلم المخاطبين، الذين يستدلون بالظواهر على البواطن، ولكون تأخير العليم يحقق تناسب الفواصل.

والمتتبع لورود هاتين الصفتين فى الكتاب المجيد، لايخطئه أن يجد

(١) تفسير المنار ٢ / ١٣ (٢) سورة البقرة آية ١٣٧

(٣) البحر المحيط ١ / ٤١١

التذييل بهما فى موقعين متقابلين : أحدهما فى مجال التهديد والوعيد ، كما فى هذه الآية ، حيث يهدد أهل الكتاب بأن الله يتولى عن نبيه مراقبتهم ومجازاتهم بأعمالهم ، وكما فى قوله : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم(١) » وفيه طمأنة للمؤمنين بأن الله راد كيد أعدائهم إن هم أضمروا السوء فى دعوتهم إلى السلم ، يكشف أمرهم ويأخذهم بمكرهم. ومقام التهديد يستدعى تقديم السمع ، للإشعار بقربه من الأصوات وشدة مراقبة أصحابها ، وذلك ما كشف عنه السهيلى فى قوله : (فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب ، كالأصوات وهمس الحركات ، فإن من يسمع حسك وخفى صوتك أقرب إليك فى العادة ممن يقال لك إنه يعلم ، وإن كان علم البارى سبحانه متعلقا بما ظهر وبطن ، وواقعا على ماقرب وشطن ، ولكن ذكر السمع أوقع فى باب التخويف من ذكر العليم ، فهو أولى بالتقديم(٢)) .

والثانى فى مجال التقرب إلى الله واستدرار عونه ورحمته كما فى دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم(٣) » وقد قدمت فيه صفة السمع لأنها التى يترتب عليها إجابة الدعاء ، ولما كان الدعاء لا يقبل إلا إذا خرج من قلب صادق وعقيدة سليمة جاء الوصف بالعليم ، ليدل على اخلاصهما وصدق بواطنهما فى توجهها إلى الله تعالى ، حتى يكونا جديرين بتقبل الله تعالى لأعمالها .

هذا الذى استدعى تقدم السميع على العليم هو نفسه الذى استدعى تقدم الشاكر على العليم فى قوله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج

---

(١) سورة الانفال آية ٦١

(٢) نتائج الفكر ص ٢٧١

(٣) سورة البقرة آية ١٣٧ .

البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم[1]).

وليس كما قال أبو حيان: (وقد وقعت الصفتان هنا الموقع الحسن لأن التطوع بالخير يتضمن الفعل والقصد، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل، وذكر العلم باعتبار القصد، وأخرت صفة العلم، وإن كانت متقدمة على الشكر، كما أن النية مقدمة على الفعل لتواخى رؤوس الآى[2]).

والشكر من الله على ماقال الراغب: (إنعامه على عباده، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة[3]) هذا الإنعام والإحسان استحقه المتطوعون بأعمال الخير، فقرن الله تعالى حسن الجزاء بحسن العمل، وكأنه قال: من تطوع خيراً فأحسن النية والعمل كافأه الله بأحسن مما عمل، ثم جاء الوصف بالعليم بمثابة تأكيد على أن الله لا يضيع من أجورهم شيئا. لأنه العليم بما تبديه الجوارح وتخفيه الصدور، فجاءت كل صفة فى مكانها، وهذا مايتضح مما نقله صاحب الفتوحات الإلهية فى تفسير هاتين الصفتين وموقعهما من الآية. قال (معنى الشاكر فى حق الله تعالى المجازى على الطاعة بالثواب، ففى التعبير به مبالغة فى الإحسان إلى العباد، ومعلوم أن الشاكر فى اللغة هو المظهر للإنعام عليه، وذلك فى حق الله تعالى محال، وقوله «عليم به» أى بأحواله، فلا ينقص من أجره شيئاً، وهذا علة لجواب الشرط قائم مقامه، فكأنه قال: ومن تطوع خيراً جازاه وأثابه فإن الله شاكر عليم[4]) فدل على أن صفة الشكر وقعت موقع الجزاء لتطوعهم بالخير، فوجب أن تتقدم، ولو عكس النظم لأوهم تقدمُ العليم التعريض بهم، وأن الله يجازى منهم من علم حسن نيته وإخلاصه، وليس ذلك بمراد.

إن من يتتبع ترتيب الصفات فى تذييل الآيات يرى عجبا، ويوقن أن

---

(1) سورة البقرة آية ١٥٨ — (2) البحر المحيط ١ / ٤٥٨

(3) المفردات ٢٦٦ — (4) الفتوحات الإلهية ١٢٦/١

وراءها من أسرار الإعجاز مالا تحيط به الأقلام، وتقصر عن إدراك كنهه الأفهام. فهى بحاجة إلى مداومة النظر والتذرع بالصبر للوقوف على بعض أسرارها وعدم الركون إلى اليـــأس، والإسراع إلى القول بتناسب الفواصل.

فالقرآن يغير ترتيب الصفات فى مشتبه النظم الحكيم، فيقدم إحدى صفتين فى موضع، ويقدم الأخرى فى موضع آخر، وكلتا الصفتين تحقق تناسب الفواصل تقدمت أو تأخرت، مثل: العليم الحكيم، فهما من روى واحد، هو الميم المسبوقة بياء المد، ولا تتغير الفاصلة بتغير ترتيبها، وقد اجتمعت هاتان الصفتان فى القرآن ستا وثلاثين مرة، تقدمت العليم فى ثلاثين منها، وتقدمت «الحكيم» فى ستة مواضع، وليس ثمة مجال للقول بمراعاة الفواصل.

وحين نتأمل كل موضع فى سياقه نجد من دواعى النظم ما يوجب تقدم المقدم، وأى محاولة لعكس الترتيب إنما تذهب ببلاغة النظم وسر إعجازه.

ولنأخذ مثلا من مواضع تقدم العليم، قوله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم(١)» فهل يمكن والحديث كله فى سياق العلم الذى منحه الله تعالى آدم، ورفع به قدره حتى تتبين الملائكة ما كان قد خفى عليها من سر استخلاف الله له، وأمرهم بالسجود له؟ هل يمكن أن يقدم الوصف بالحكيم فى مثل هذا السياق؟ أو ليست الحكمة قد جاءت تسليما من الملائكة بأن الله تعالى كان بالغ الحكمة فى اختيار ماعلمه من صلاح الخليفة لما استخلف فيه؟

وهذا قوله تعالى: «وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم(٢)» يربط الله فيه على قلب الرسول عليه

---

(١) سورة البقرة آية ٣٢ (٢) سورة الأنفال آية ٧١

السلام ، ويطمئنه بأنه سيكون عينه التى تكشف له مايدبره أعداؤه من كيد ومكر ، فهو المطلع على أسرارهم ، العليم بما تكنه صدورهم ، ويذكره بمصير الذين خانوا من قبل فمكنه الله تعالى من رقابهم ، والخيانة من شأنها أن تحاط بالكتمان ، والخائن يدبر أمره بليل ، فكان تقديم صفة العليم التى لا يخفى بها على الله شيء ، هى الأنسب بهذا السياق .

ثم انظر كيف تقدم الوصف بالعلم ، حين انكشفت حقيقة رؤيا يوسف عليه السلام ، وعلم ما كان خافيا منها فى قوله تعالى: « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم[1] » .

أما المواضع التى تقدم فيها وصف الحكيم ، فإنها جميعا تدل على إطلاق مشيئته فى أفعاله ، مما يخفى معه وجه الحكمة على خلقه ، فكان تقديم ما يدل على وصفه بغاية الإحكام دعوة للعقل إلى تفويض الأمر لمن خلق فيما يتقاصر عن إدراكه ، وتغيب عنه حكمته ، ففيما أدركه دليل على مافاته .

فهذه منازل عباده قدّرها متفاوتة ، يرفع درجات من يشاء ، ويخفض من يشاء ، وهو الحكيم فيما يرفع ويخفض . « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم[2] » ، تقدّم وصف الحكيم ، لأنه الأهم فى تعليل إطلاق مشيئته ، وجاء العليم بمثابة التأكيد لإحكام أفعاله ، لأنه يفعلها عن علم محيط بمن يرفع ومن يخفض .

وهذه إرادته المطلقة التى تحكمت فى الخلق إيجاداً وإعداماً ، هداية وإضلالا ، تتحكم فى جزاء الضالين يوم القيامة ، فتعاقب بالتخليد فى النار من تشاء ، وتقطع هذا العقاب عمن تشاء ، وهى فى كل ذلك تحيطها حكمة الحكيم الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور : « ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن

(١) سورة يوسف آية ١٠٠ (٢) سورة الانعام آية ٨٣

قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم »(١) .

فهل يمكن أن يقدم وصف العليم فى تعليل أفعال خفى فيها وجه الحكمة فى التمييز بين المتعاقبين ؟ إن العلم حين يأتى عقب الحكمة هنا يعيد إلى العقل رشده ، لتطمئن قلوب العباد إلى أن حكمته فى أفعاله وراءها علم بما خفى ودق من أحوال خلقه . فهو الحكيم لأنه العليم ، هذا التعليل بالحكمة والعلم فيما شاء إخراجه من النار كان حريا بأن يغنينا عن جدل طويل حول الاستثناء فى الآية ، ومن هم المستثنون ؟ ومن ماذا يستثنون ؟ مما يجب أن نفوض فيه الأمر للحكيم العليم .

وفى قصة رسل إبراهيم حين بشروه بإسحاق ، وجوابهم لامرأته حين تعجبت من أن تلد وهى عجوز عقيم ، مثل واضح لبلاغة النظم الكريم فى ترتيب الألفاظ وفقا لحركة النفس والعقل فى استقبالهما للمعانى وتصورها . قال تعالى : « وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم(٢) » .

لقد كانت دهشة سارة كما رصدها القرآن بالصوت والصورة ، فانطلق لسانها بما جاش فى صدرها ، وتملكها من الذهول والحيرة ، كانت استعظاما للحدث على ماجرت به العادة ، لا استعظامه على المحدث القدير ، فاكتفى الملائكة برد هذا الحدث العظيم إلى المحدث الأعظم « قالوا كذلك قال ربك » وكأنهم أرادوا أن يفيقوها من دهشتها ، وينقلوها من عظمة الحدث إلى عظمة المحدث ، وهذا كاف لذهاب حيرتها وتعجبها . أما لماذا كان هذا بعد هذه السن وآفة العقم اللتين يستحيل بهما فى دنيا الناس أن يكون ما كان ، فذلك مقتضى الحكمة التى نفوض أمرها إلى الله فيما لا تطوله العقول . فالوصف

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٨ (٢) سورة الذاريات آيات ٢٨ - ٣٠

بالحكيم حين يتقدم فى هذا الموضع إنما يواكب حركة النفس والعقل فى تطلعهما إلى الإجابة عما يجول فى النفس، ويدور به الخاطر .

بمثل هذا الإحكام فى ترتيب الصفات ننظر إلى تقديم «الغفور» على «الرحيم» فى أكثر من سبعين موضعا من فواصل القرآن ، حيث يجىء الوصف بالرحيم تعليلا لمغفرته التى وسعت ذنوب العباد جليلها ودقيقها ، ووسعت ذواتهم، مؤمنهم وعاصيهم ، فهو واسع المغفرة عظيمها ، يستر ذنوب عباده ، ويتجاوز عن خطاياهم ، لأنه عظيم الرحمة بمن خلق، وهكذا جاء وصف الرحمة متأخراً أبدا إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى : «الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور(١)» .

وفى البحث عن سر هذه المخالفة أسرع المفسرون إلى الفاصلة . يعلقون بها هذه المغايرة ، حين عز عليهم وجود سبب غيرها ، أو وجدوا سببا غير مقنع . يقول الشهاب : (قدم الرحمة لأنها منشأ المغفرة ، أو للفاصلة(٢)) وكأن الشهاب أحس بضعف تعليله من المعنى ، فلجأ إلى الفاصلة ، لأن كون الرحمة منشأ المغفرة يتوارد عليه أن المغفرة قدمت فى جميع المواضع التى اقترنت فيها بالرحمة ، عدا هذا الموضع ، فلماذا لم تراع هذه النكتة فيها جميعا ؟

أما تعليله بمراعاة الفاصلة ، فينقضه مجىء الغفور متقدما فى موضع يتطلب تناسب الفواصل تأخيره ، لأن الفاصلة قبله على روى الراء ، بل إنها نفس الفاصلة التى سبقت آية سبأ ، وهى قوله تعالى : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند

---

(١) سورة سبأ ١ - ٢ (٢) حاشية الشهاب ٩/١٨٧

الله أتقاكم إن الله عليم خبير قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم(١) ».

فالفاصلة التى سبقت « الرحيم » وهى « خبير » هى نفسها التى سبقت « الغفور » فى سبأ ، فلو كان التقديم للمشاكلة لقدمت هنا كما قدمت هناك.

أرى ـ والله أعلم بمراده ـ أن الغفور يتقدم فى كل موطن يهمس فيه السياق بوقوع المعاصى وكفران النعم ، والدعوة إلى التوبة والاستغفار من الذنوب ، فتكون المبادرة بالمغفرة لطمأنة المذنبين والخطائين إلى أن يد الله ممدودة إليهم ، تعفو عنهم وتستر خطاياهم ، لأنه رحيم بهم ، كما نجده فى مثل قوله تعالى : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم(٢) » « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم(٣) » « قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم(٤) ».

أما الآية التى تقدمت فيها الرحمة من سورة سبأ ، فهى فى سياق يعدد الله تعالى فيه نعمه على خلقه المستوجبة للحمد والشكر عليها. فيذكر إحكام أمره وهيمنته على مافى السموات والأرض ، إيجادا وإعداما ، إحياء وإماتة ، وتدبير أمر الكون وتسخير مافيه للإنسان بما يودعه فى أرضه من أسباب النفع ، وأظهرها مايتخلق فى بطنها من أجنة النبات ، فتخرجه حيا ناضرا ، يحيا به الإنسان والحيوان ، وما يمدها به من أسباب النماء منزلا بقدر من السماء . وغير ذلك مما أودع الله تعالى باطن الأرض ، سيظل العلم يكشف عن بعضها إلى أن يلقى الناس رب الناس . هذه النعم الجليلة مصدرها ودوام

---

(١) سورة الحجرات ١٣ - ١٤ (٢) سورة آل عمران ٨٩
(٣) سورة الزمر ٥٣ (٤) سورة يوسف ٩٧ - ٩٨

بقائها رحمة الله الواسعة بخلقه مع مقابلتهم لها بالكفران والنسيان ، ولو أمسك الله تعالى واحداً من مظاهر رحمته وهو الماء الذى ينزله من السماء لما بقى على ظهرها من دابة ، لهذا جعل الله تعالى الرياح التى تسوق الأمطار أثراً من آثار رحمته . وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمتـــه(١) » . فتقديم الرحمة هو الأنسب بهذا السياق ، حيث كانت سبب نعمه ، وهى بعد سبب فى تجاوزه عمن أنعم عليهم إن هم قصروا فى شكره عليها .

وللسهيلى وجه فى هذا التقديم لا يبعـــد عن بلاغة النظم ، لأنه يجعل الترتيب ضربا من الترقى بذكر الخاص بعد العام . يقول (وأما قوله «وهو الرحيم الغفور » فى سبأ . فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة ، إما بالفضل والكمال ، وإما بالطبع ، لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان ، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم ، والعموم بالطبع قبل الخصوص(٢)) .

ومما اتخذ دليلا على مراعاة الفاصلة فى الترتيب بين الصفات ، تقديم الرسول على النبى فى قوله عز وجل : « واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا(٣) » .

وقوله : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا(٤) » .

يقول الشيخ عبد الرحمن تاج فى معرض تدليله على أن القرآن يقـــدم ويؤخر لتوخى التناسب بين الفواصل : (وذلك أن الرسالة أخص من النبوة ، والمعهود فى الكلام المرسل الذى يجمع بين عام وخاص أن يقدم الأول على الثانى ، لكنه قدم فى هاتين الآيتين الخاص على العام ، مراعاة

---

(١) سورة الأعراف ٥٧
(٢) نتائج الفكر ص ٢٧١
(٣) سورة مريم ٥١
(٤) سورة مريم ٥٤

لتناسب الفواصل مع اتحاد المعنى ، فإن السورة بنيت على فاصلة الياء المشددة التى بعدها ألف(١) » .

قبل أن نعرض لبيان السر فى تقديم الرسول على النبى نقدم الدليل على سقوط القول بمراعاة الفاصلة من قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل(٢) » ، وقوله فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى(٣) . وفيهما قدم الرسول على النبى فى غير الفواصل ، فالقول بأن تقديم الرسول للفاصلة فى قوله « وكان رسولا نبيا » يفتقر بداية إلى الدقة فى تتبع مواطن اجتماعهما فى الذكر الحكيم .

وحين نستنطق المعاجم بحثا عن معنى الرسول والنبى نجد الرسول فى اللغة (الذى يتابع أخبار الذى بعثه ، أخــذا من قولهم : جاء الإبل رَسَلاً ، أى متتابعة(٤)) .

ويقول الراغب فى تفسير النبى : (النبوة سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة علتهم فى أمر معادهم ومعاشهم ، والنبى لكونه منبئا بما تسكن إليه العقول الذكية(٥)) واشتقاق النبى إما من النبأ بمعنى أنه المخبر عن الله تعالى ، أو من النبوة والنباءة بمعنى الارتفاع .

وبالمقارنة بين مدلولى اللفظين لغويا نجد الرسول يطلق على من يتحمل خبرا ممن أرسله إلى من أرسل إليه ، سواء كان المرسل هو الله أم غيره ، أما النبى فإن المخبر عن الله تعالى ، وهو بهذا أخص من الرسول . وعليه يكون تقديم الرسول على النبى ماضيا على الأصل فى الترقى من العــام إلى الخاص ، وإذا كان اشتقاق النبى من النُّبُوة كان الوصف بالنبى بعد الرسول

---

(١) الشيخ عبد الرحمن وبحوث قرآنية ١١٩

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧ — (٣) سورة الأعراف آية ١٥٨

(٤) لسان العرب مادة : رسل .

(٥) المفردات ٤٨٢

مشير إلى علو منزلته بين الرسل ، على ما جاء فى وصف إدريس عليه السلام « ورفعناه مكانا عليا[1] » . وإلى هذين الوجهين أشار الشهاب فى شرحه لقول البيضاوى : « أرسله الله إلى الخلق فأنبـأهم عنه » . قال الشهاب : (إشارة إلى أن الرسول بمعنى المرسل ، وقوله « أنبأهم أى أخبرهم » إشارة إلى أن النبي بمعنى المنبيء عن الله بالتوحيد والشرائع ، وأن أصله الهمزة فأبدلت فى النبي والنبوة ، ولو قيـل هنا إنه من النَّبْوة بدليل قوله « مكانا عليا » والمعنى : رفيع القدر على غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ليكون بمعنى آخر أخص كان أظهر .. ويحمل أن يريد أن المراد بالرسول والنبي هما معناهما اللغوى ، وهو الرسل من الله ، والمنبيء عن الله ، وليس كل مرسل ينبيء ، لأنه قد يرسل بعطية ومكتوب ، فلذا قدم[2]) .

وبالرغم من الاختلاف حول الوجه الذى كان به الرسول أخص ، فإنه حين يجمع بينهما يحمل كل منهما دلالته اللغوية ، فيكون فى الإرسال معنى حمل الرسالة وتبليغها ، ويكون فى النبوة معنى الخبر الصادق كما هو أصل النبأ على ما صرح به الراغب : (النبأ خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ، وحق الخبر الذى يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب ، كالتواتر ، وخبر الله تعالى ، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام[3]) فكأنه قال : وكان مرسلا من الله مبلغا عنه بالخبر الصادق .

أما على تفسيرهما فى اصطلاح الشرع بما يدل على عموم النبوة وخصوص الرسالة ، لأن الرسول مأمور بالتبليغ ودعوة الخلق ، بخلاف النبي ، أو لأنه خص بكتاب أنزل معه ، فقد ذهب القرطبى إلى أن الرسول قدم اهتماما بمعنى الرسالة[4] وهو وجه فى التقديم غير عزيز فى لسان العرب .

---

(1) سورة مريم آية ٧٥ — (2) حاشية الشهاب ٦ / ١٦٤

(3) المفردات ٤٨١ — (4) القرطبى ٤ / ٣٤ ٢٧

وهذا مثل جلى فيما اجتمع من الصفات فى تذييل الآيات ، يغير القرآن فى ترتيبها بما يحقق تناسب المقاطع حتى يخيل إليك أنه من أجل هذا التناسب كان التغيير، فإذا تأملت السياق ومقتضياته، أيقنت أن المغايرة ما كانت إلا استجابة للمعانى والأغراض .

وصف الله ذاته بالعلى والكبير ، وكان الوصف « بالعلى » يتقدم فيقع « الكبير » فاصلة ، يتعانق رويها مع الفواصل ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير(١) » . وقوله : « ذلك بأن الله يولج الليل فى النها ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير(٢) » ، وقوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير(٣) » .

وحين بنيت الفواصل فى سورة النساء على الألف الممدودة المنقلبة عن التنوين ، المسبوقة بياء المد جاء وصف « الكبير » متناغما مع هذا الإيقاع « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا(٤) » .

وفى سورة الرعد حيث كانت الفاصلة مبنية على حرف صحيح ساكن عند الوقف بعد مد بالألف غوير ترتيب الوصفين ، وغويرت الصيغة من العلى إلى « المتعال » ، فتناغمت مع الفواصل قبلها وبعدها « الله يعلم ما تحمل

---

(١) سورة لقمان آية ٢٩ - ٣٠ (٢) سورة الحج آية ٦١ - ٦٢
(٣) سورة سبأ آية ٢٢ - ٢٣ (٤) سورة النساء ٣٤ - ٣٥

كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال(١) » .

فاطَّراد تقدم العلى فى جميع المواضع عدا الموضع الأخير مع ملاءمته للفواصل ، والعدول عن هذا الترتيب فى آية الرعد وحدها ، وهو الذى تحقق به تناسب الفواصل يبدو كما لو كان القرآن يعمد إلى هـــذا التوافق الموسيقى ، ويغير من أجله .

فإذا عدنا إلى الآيات التى تقدم فيها العلى وجدناها فى سياق يبطل الشرك ويدحضه ويستهين فيه بالمشركين ومن أشركوهم معه . فكان تقديم الوصف الذى يظهر الاستعلاء على من اتخذوهم من دون الله أنداداً هو الأليق بهذا السياق على ماتقضى به قاعدة تقديم الأهم . الآية الوحيدة التى تقدم فيها « العلى » فى غير هذا السياق هى آية النساء ، وفيها يصف الله تعالى طرق العلاج لإصلاح النساء اللواتى يخرجن عن طاعة أزواجهن . وحتى تكون هذه الطرق وسائل للعلاج ، لا أدوات لإذلال النساء والتعالى عليهن ، جاء قوله تعالى : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليـــا كبيراً » فتجاوب تقديم العلى مع استعلاء الطغاة من الرجال إدلالا بقدرتهم ، وبغيا على من بأيديهم من النساء ، وتجاوب كذلك مع صريح دلالة حرف الاستعلاء فى قوله « فلا تبغوا عليهن » فالموضع للعلى أصالة ، وجاء « الكبير » تذكيرا لهذا المستعلى الباغى ، بقدرة الله ، الذى شرع هذه الوسائل من العلاج ، ولا يرضى بتجاوزها طغيانا وكبرا .

أما الموضع الذى عكس فيه الترتيب من سورة الرعد فقد جاء فى مقام الإدلال بكمال قدرة الله وتعاليه عما يصفه به المشركون ، بعد أن ساق الله من بداية السورة أمثلة لكمال قدرته . بدأها بقوله : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها(٢) » ، وعدد مظاهر خلقه فى السماء ، من الشمس والقمر ،

---

(١) سورة الرعد آية ٩ (٢) سورة الرعد آية ٢

وما ترتب عليها من تعاقب الليل والنهار ، وبسط الحديث عن مظاهر خلقه فى الأرض من الأنهار والجبال والثمار والزروع ، وأنهاها بخلقه للإنسان ، وعلمه بأحوال الأجنة وأطوارها ، وبما خفى ودق من أسرار الكون ، تخلل ذلك تهديد المشركين المنكرين للبعث المستخفين بعذاب الله ، المستعجلين له ، فجاء تقديم « الكبير » الدال على عظمة الخالق وكبريائه متجاوبا مع سياق يعدد مظاهر قدرته ، ثم أعقبه وصف « المتعال » بهذه الصفة الدالة على كمال العلو ، لأن التفاعل فيها للمبالغة كما قال الراغب(١) ، لتنزيه الله تعالى عما وصفوه به من اتخاذه الولد وغير ذلك مما يقدح فى كمال قدرته وعظيم شأنه ، وهو ما أشار إليه الطيبى فيما نقله الشهاب : (إن معنى الكبير المتعال بالنظر لما وقع بعده وهو « عالم الغيب والشهادة » : هو العظيم الشأن الذى يكبر عن صفات المخلوقين ، ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ماسبق من قوله « ماتحمل كل أنثى » إلخ مع إفادته التنزيه عما يزعم النصارى والمشركون(٢)) فإذا كانت صفة المتعال إلى دلالتها على كمال الرفعة تشير كذلك إلى تنزيه الله تعالى عما وصفه به أراذل خلقه ، فإن موقعها من النظم يكون بعد إثبات كمال عظمته وقدرته التى دل عليها وصف « الكبير » .

ومن روائع اجتماع الصفات ومخالفة ترتيبها فى فواصل القرآن بما يحقق التجانس فى اللفظ والمعنى قوله تعالى حكاية للحوار الذى دار بين ملك مصر ويوسف عليه السلام : « وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم(٣) » .

قدم الملك مايفيد العلم على الأمانة ، وعكس يوسف عليه السلام الترتيب ، فقدم مايفيد الأمانة على العلم ، وتحقق بتقديم « حفيظ » فى كلام يوسف التقارب فى الفواصل بين النون والميم ، والاتفاق فى الردف وهو الياء .

---

(١) المفردات ٣٤٥ (٢) حاشية الشهاب ٥ /٢٢٣

(٣) سورة يوسف آية ٥٤ - ٥٥

وحين نبحث عن وجه دلالى لهذه المغايرة ، نرى أن الملك ضمن وصفه «مكين» ـ ومعناه : ذو مكانة ومنزلة ـ وصفه بالعلم ، لأن يوسف لم يصل إلى هذه المكانة إلا بما أظهره من العلم فى تأويله رؤيا الملك ، ورسمه خطة دقيقة للموازنة العامة فى سنى الجدب ، ليجنب الأمة أخطار المجاعة حتى تتخطى هذه الأزمة ، والعلم وحسن التخطيط هو المؤهل الأول لتولى مثل هذه الوزارة ، فقدمه الملك على الوصف بالأمانة ، لأنه الأهم فى فكر ملك حريص على الإفادة من علم يوسف فى ظروف حرجة تمر بها أمته ، ويقع الوصف بالأمانة مبالغة فى حرصه على التمسك به ، وجدارته بهذا المنصب .

أما يوسف عليه السلام فقد كان تقديم ما يدل على أمانته هو الأهم عنده ، لأنه بعد أن استشف من كلام الملك رغبته فى الاستعانة فى أمور الملك وهو على وشك أن يستوزره ، بادر بطلب وزارة الخزانة وهى وزارة تتعلق بالأموال العامة ، وطلبها بوجه خاص ربما يثير شبهة فى الإفادة منها ، فكانت مبادرته بتقديم وصف الحفيظ لدفع مثل هـــذا التوهم ، وتأكيد نزاهته ، والإشعار بأن ولاية الأموال تحتاج فى المقام الأول إلى ذمم نظيفة ، وضمائر حية تسبق حاجتها إلى الخبرة والعلم ، فصاحب اليد النظيفة إذا ماتولى الأمور المالية ، وكان قليل العلم ، أمكنه سد هذا النقص بالاستعانة بذوى الخبرة ، أما الخيانة فخطرها على الأمول العامة أشد من أخطار الجهل .

وذلك ماأراد يوسف عليه السلام بإشراقة النبوة أن يلفت إليه نظر ولاة الأمور فى اختيار عمالهم ، الذين يلون لهم أعمالا تتعلق بأموال الأمة .

أفيكون بعد ذلك من الإنصاف فى القول ، الزعم بأن الغرض من التقديم والتأخير مجرد رعاية الفواصل ؟ !!

تقـــديم القيود

ذكر سيبويه من تقديم الظرف للعناية قوله تعالى : « ولم يكن له كفوا أحد(١) » ثم قال : (وأهل الجفاء من العرب يقولون : ولم يكن كفوا له أحد(٢)) فأومأ بذلك إلى أن الوقوع على أغراض التقديم بحاجة إلى رقة حس ، وصفاء طبع ، وأن إدراك المعانى اللطيفة المختبئة فى أكسيتها من الألفاظ ، ومواكبة حركتها فى مواقعها من النسق لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق السليمة ، والأفهام الواعية ، لذلك كانت جفوة الطبع ، ونبوة الذوق سبب غياب سر التقديم عن جفاة الأعراب فى الآية الكريمة .

والمتأمل لنظم الآية واحتمالات التقديم والتأخير فيها يتبدّى له ثلاث صور متغايرة فى نسقها ودلالاتها ، أبلغها ماعليه النظم الحكيم .

الصورة الأولى : أن يأتى الترتيب على الأصل من تقديم الاسم على الخبر ، وتأخير الظرف عما تعلق به . فيقال : ولم يكن أحد كفوا له ، ويكون الغرض حينئذ نفى وجود المكافىء .

والثانية : يتقدم فيها الخبر وما تعلق به من الظرف على الاسم ، فيقال : ولم يكن كفوا له أحد ، كما كان الأعراب يقولون ، فيتسلط النفى على المكافأة والمساواة .

والثالثة : ما جاء به النظم الحكيم من تقديم الظرف على متعلقه ، وتقديمها معا على الاسم ، وفيه يكون نفى المكافأة والمساواة منصبا على الذات

---

(١) سورة الإخلاص آية ٣ (٢) الكتاب ٥٦/١

المقدسة، ليشعر من أول الأمر بأنه تعالى مما لا يتصور له مكافىء . وذلك ماقصد إليه النص القرآنى، وإلى ذلك أشار الزمخشرى، فقال : (هذا الكلام إنما سيق لنفى المكافأة عن ذات البارى سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف . فكان لذلك أهم شىء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه[1])

فى عبارة الزمخشرى هذه هدم لهذا التقسيم الذى جرى عليه المفسرون وأهل البيان منهم، بجعل التقديم لأحد غرضين . التخصيص أو الاهتمام، وكأن أحدهما نقيض الآخر، فتقديم الظرف[2] فى الآية دال على التخصيص قطعا، ومع ذلك يرى الزمخشرى أنه أفاد الاهتمام ، لأنه مصب الغرض ومركزه فى نفى المكافأة عن ذات الله خصوصا .

وقد سبق الدكتور أبو موسى إلى تجلية رأى الزمخشرى فى العلاقة بين الاهتمام والتخصيص حين رد على أبى حيان، الذى ذهب إلى أن التقديم فى قوله تعالى : « إياك نعبد » للاهتمام وليس للتخصيص الذى قال به الزمخشرى: (على أننا لا نرى فى كلام سيبويه مايعارض كلام الزمخشرى ، لأن سيبويه يثبت العناية والاهتمام لدلالة صورة التقديم، وهذه العناية لا تعنى أن الصورة لا تفيد التخصيص، لأنه لا منافاة بينهما، ومن المقرر أن النكات لاتتزاحم وليس فى كلام سيبويه مايرفض دلالة الاختصاص ، كما أنه ليس فى كلام الزمخشرى مايرفض دلالة العناية والاهتمام[3]) .

بل إننى أذهب إلى أن الزمخشرى كان صريحا فى جعل التخصيص ضربا من الاهتمام فى كثير من النصوص ومنها هذا النص الذى نقلناه عنه .

وحين يقول ابن الصائغ وأبو حيان إن الظرف تقـــدم فى هذه الآية

---

(١) الكشاف ٤/٢٩٩

(٢) يطلق النحاة واللغويون اسم الظرف على مايشمل المجرور كما هنا .

(٣) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٣٤٠ .

لتحقيق التناسب فى الفواصل فإن ذوبا من إعجاز النظم يتفلت من الأذواق .

كما أن الوقوف فى بيان الغرض من التقديم عند القول بالاختصاص ، أو الاهتمام دون البحث عن سر هـــذا الاهتمام والتخصيص قصور عن استكشاف أسرار النظم .

ولنضرب لذلك مثلا ما جاء فى دعاء موسى عليه السلام « كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا(١) » قال أبو السعود : إن تقديم المجرور « بنا » على متعلقه « بصيرا » لمراعاة الفواصل(٢) ، وكأنه رأى أن التخصيص لا يتأتى فيه ، لأن بصر الله تعالى لا يغيب عن شىء من خلقه ، فلا يصح حصره فى المتكلم ، لكنك حين تنعم النظر ترى أن البصر الذى عناه موسى هو ماخصه الله به من العناية واللطف فى كل أطوار حياته ، منذ تعلقت إرادة الله بوجوده ، إلى الوقت الذى صدح فيه بهذا الدعاء ، كما هو صريح قوله تعالى امتنانا عليه : « ولتصنع على عينى » فكان التقديم وحده هو الذى يظهر إحساس موسى بفضل الله عليه وماخصه به من الفضل المستوجب لعظيم الشكر والذكر .

ومثله ماجاء فى قوله تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين(٣) » فإن علم الله تعالى محيط بكل خلقه ، ولا سبيل إلى تخصيصه بخليله ، فإذا دققت النظر فى قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل » أدركت أن العلم الذى خص به إبراهيم عليه السلام مرتبط بمنحة النبوة ، وفيوضات الهدى التى غمر الله بها نبيه ، اختصاص بمؤهلات الرسالة ، وعلمُ الله تعالى بصلاحية المرسل لتحملها وأدائها ، و« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ذلك مانجد ظلاله فى قوله تعالى ممتنا على هذه الأمة بما يسره فى شريعتها ، وفتح أمام مذنبيها أبواب التوبة بالإقلاع عن الذنب واستغفار الرب « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

---

(١) سورة طه آية ٣٣ - ٣٥ (٢) تفسير أبى السعود ٦/ ١١

(٣) سورة الأنبياء آية ٥١

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما(١) » حيث يبدو أن تقديم المجرور « بكم » على « رحيما » للمحافظة على السجع ، لأن رحمة الله تظلل كل الأحياء من خلقه ، فلا مجال لحصرها في هذه الأمة ، فإذا ما قرأت قوله « ولا تقتلوا أنفسكم » ووضعته بإزاء قوله تعالى خطابا لبني إسرائيل « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » موجبا عليهم قتل النفس المذنبة ، تحقيقا للتوبة أدركت سر تخصيص أمتنا بفيوضات رحمته حين جعل التوبة في الإقلاع عن الذنب ، والاستغفار منه ، وليس سوى التقديم ما يشعر بجلال هذه الرحمة . فإذا أردت أن تصوغ ذلك في صورة قصر إضافي يقابل فيه بين يسر الشريعة في ديننا والكلفة والمشقة فيما أنزل على بني إسرائيل فقد وفيت حق الصناعة .

وتأمل معي كيف يشي تقديم اللفظ بما أسرته أخت موسى وبالغت في إخفائه وهي تقصه ، فيما حكاه الله تعالى : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون(٢) » .

لم يستطع حذرها في قصه ، وفي عرضها على آل فرعون أن تدلهم على من يكفله ، لم يستطع إخفاء مشاعرها المتوهجة ، ولهفتها على أخيها ، فوشى لسانها بمكنون ضميرها ، حين قالت : « وهم له ناصحون » فأشعرت بتقديمها للمجرور ، وما يدل عليه من اختصاص نصحهم به ، أنهم أهله وذووه ، حتى شكوا في أمرها ، وقالوا لها ما حكاه ابن عباس رضي الله عنهما! وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه(٣) ؟

فلو أنها قالت: « وهم ناصحون له » لما كان هذا الشك ، لأن شأن المراضع من بني إسرائيل أن ينصحن لمن يرضعنه ، ابتغاء الحصول على الأجر ، وخاصة

---

(١) سورة النساء ٢٨ - ٢٩ (٢) سورة القصص ١١ - ١٢
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٠

إذا كان الرضيع من بيت الملك ، أما أن يكون نصحهم خالصا له على ما أفاده التقديم فذلك ما أثار الشك ، مما جعل أخت موسى تتخلص من ذلك بجعل الضمير فى « له » للملك ، لا للطفل ، قائلة : (ما أردت إلا أنهم ناصحون للملك ، فتخلصت منهم بهذا التأويل)(١) .

ونقرأ قوله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتاسرون فريقا »(٢) فيروعنا تقديم المفعول على فعل القتل وتأخيره عن فعل الأسر ، مع أن الغرض هو تفصيل المفعول وتقسيمه مما يقتضى تمام التناسب فيه أن يقدم فى الجملتين ، مما دفع المفسرين إلى القول بأن التقديم لمراعاة الفاصلة .

وأرى — والله أعلم بما أراد — أن تقديم مفعول القتل ، وتأخير مفعول الأسر يلمح إلى أن هدف المؤمن الأول ، هو كسر شوكة عدوه ، والقضاء على كل وسائل مقاومته ، ولا يتحقق ذلك بغير القتل . أما الأسر فليس الغاية التى يتطلع إليها المقاتل المسلم، خاصة بعد ذلك العتاب لنبي الله والمؤمنين فى غزوة بدر على افتدائهم الأسرى ، فكان تقديم الأول ، وتأخير الثانى إشعارا بالتفاوت بينهما فى غايات المؤمن وأهدافه . ثم إن هذه الآية نزلت فى بنى قريظة ، وقد حكم الله تعالى فيهم على لسان سعد بن معاذ بقتل الرجال وسبى العيال والذرية . فكأن الفريق المقتول هو الذى من أجله تحركت جموع المسلمين ، وللقضاء عليه تلاقت قلوبهم وأهدافهم .

أغراض التقديم فى القيود

قلت : إن القول بالتقديم فيها للتخصيص أو الاهتمام ليس كشفا عن الغرض ، ولا بيانا لسر التقديم ، فتخصيص الفعل وما فى حكمه بقيد من القيود لابد أن يسوق إليه غرض من أغراض النظم يحتاج إلى الكشف

---

(١) المحرر الوجيز ١٤٩/١٢ (٢) سورة الأحزاب آية ٢٦

عنه، كما أن الاهتمام بالقيد وتقديمه يتطلب بيان الدافع إلى هذا الاهتمام، ونحن حين نلتهى فى بيان وجه البلاغة من التقديم عند القول بالاهتمام، فإنما نرتد إلى عصر ماقبل عبد القاهر، ونكون ممن عناهم بقوله: (وقد وقع فى ظنون الناس أنه يكفى أن يقال: «إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم» ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف. ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه)[1].

هذا مالم يتنبه له كثير من المفسرين حين يكتفون فى تقديم القيود بالقول إنها قدمت للاهتمام أو للتخصيص. لذلك سوف نتناول بعض الأغراض من تقديم القيود سواء منها ما قيل فيه بالاهتمام وما قيل فيه بالاختصاص.

زيادة التفريع:

من ذلك ما أشار إليه الزمخشرى فى قوله تعالى: «وعلامات وبالنجم هم يهتدون»[2] فالظاهر أن الاهتداء بالنجم ليس وقفا على المخاطبين من العرب، كما أن النجم ليس وحده وسيلة الاهتداء، فتقديم المسند إليه، وتقديم القيد عليه مما لا يظهر وجه التخصيص فيه، فكان الزمخشرى سباقا إلى الكشف عن وجهه: (فإن قلت: قوله «وبالنجم هم يهتدون» مُخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه «هم» كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون، فمن المراد بهم؟ قلت: كأنه أراد قريشا، كان لهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا)[3].

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٨ (٢) سورة النحل آية ١٦

(٣) الكشاف ٢ / ٤٠٥

التخصيص بتقديم النجم جار على سبيل التجوز ، بجعل كل ما عداه من وسائل الاهتداء فى حكم المهمل ، تعظيما لهذه الآية من آيات الله فى قوم من البدو كل وسائل علمهم ليلا تعتمد على النجوم ومطالعها ، وهم يقرون بأنها من خلق الله ، فجدير بهم أن يشكروا الخالق على نعمه العظيمة .

وفى قوله تعالى « إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد »(١) يقول الشهاب الخفاجى بيانا للغرض من تقديم الجار والمجرور « لربه » على متعلقه : (قدم للفاصلة ، لا للتخصيص)(٢) وكأنه يرد على قول الزمخشري : (إنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران ، لأن تفريطه فى شكر نعمة غير الله تفريط قريب ، لمقاربة النعمة ، لأن أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه ، ثم إن عظماها فى جنب نعمة الله قليلة ضئيلة)(٣) كفران نعمة الله فى توجيه الزمخشرى هو الكفران ، وما دونه لا يعتد به ، لما أن نعم غير الله بجانب نعمه لا تستحق الذكر ، فهو قصر مجازى أريد به تعظيم الكفر بنعم الله ، والتشنيع على الجاحدين بها . فالتخصيص هنا شبيه به فى قوله تعالى : « إنما يخش الله من عباده العلماء »(٤) فى عدم الاعتداد بخشية من سواهم ، تعظيما لخشية العلماء .

والشهاب حين ينكر دلالة التقديم على القصر إنما ينكر القصر التحقيقى لا المجازى ، ولعله يرى أن مقام الذم يقتضى تعميم الجحود والنكران لنعم الله ونعم عباده ، إلا أن الزمخشرى كان أمس رحما ببلاغة النظم الحكيم لأن مقام التشنيع على جحود نعم الله تعالى لا ينهض به غير عدم الاعتداد بكل جحود سواه . وقد مضت الآيات مؤكدة على هذه الغاية ، فقدم المجرور فى الآيتين التاليتين : « على ذلك » « لحب الخير » حتى تكون شهادة

---

(١) سورة العاديات آية ٦ - ٨ (٢) حاشية الشهاب ٣٩٢/٨
(٣) الكشاف ٢٧٨/٤ (٤) سورة فاطر آية ٢٨

الإنسان بنفسه على جحوده هى الشهادة لغرابتها ، وكأن كل شهادة سواها ليست بشهادة ، وهو مايتلاءم مع صيغة المبالغة « شهيد » التى أوثرت على اسم الفاعل « شاهد » ، كما اعتبر القرآن حبه للمال هو الحب الذى يتوارى خلفه كل حب ، فكشف التقديم عن هذه الغريزة المتسلطة على طبع البخيل والتى تجعل حبه للمال يغلب حبه لنفسه .

فالتخصيص هنا مجازى استدعاه مقام تعظيم الكفران بنعم الله ، والشح بما أفاء الله على عبده ليكون أداة نفع للناس .

وهذا هو السر فى تقديم المجرور من قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون(١) » .

تقديم المجرور في قوله « أفأنتم له منكرون » قصد به التشنيع على هؤلاء المشركين الذين خصوا الذكر المبارك ، المنزل على محمد عليه السلام بهذا الإنكار والجحود ، فى حين أنهم لم ينكروا مابين يدى أهل الكتاب من التوراة ، وكأنه يقول : ما أعجب أمركم أيها العرب ، وأنتم تقابلون بكل الإنكار ما أنزل الله على نبيكم ، ولا تنكرون ما أنزل من كتب على غيره من النبيين ، فلو أن ذلك الإنكار كان من أهل الكتاب لكان لهم عذرهم ، حسدا وخوفا على منزلتهم ، أما أنتم فإنكاركم لهذا الكتاب وحده أعجب العجب . ولعلك تشم رائحة التخصيص هذه جلية فى تقديم الحديث عما أنزل على موسى وقرنه بما أنزل على محمد ، فكان التقديم لما أنكروه ملمحا إلى أن منزل الكتابين هو الله ، والمنزل عليهما رسولان ، فكيف يُخَصُّ بالإنكار ما أنزل على محمد ؟ وهذا من قبيل القصر الإضافى لزيادة التشنيع على المشركين ولإبراز التناقض النفسى والفكرى .

ولا يخفى عليك جمال النسق فى الآيات حيث تتجاوب أطراف النظم ،

---

(١) سورة الأنبياء آية ٤٨ - ٥٠

فيأتى التقديم فى فاصلة الآية السابقة « وهم من الساعة مشفقون » مجسدا انشغال المؤمنين بها ، ودوام ذكرهم لها . فهى ملء نفوسهم وقلوبهم، لاتغيب عنهم طرفة عين ، حتى لكأنهم لا يخشون سواها مما تمتلىء به أذهان الناس ويشغلهم عن الآخرة والعمل لها . فقل إن شئت هو قصر مجازى يقصر فيه الخوف على الساعة وأهوالها ، واعتبار كل خوف لسواها كلا خوف. وهذا مايذهب به القول بأن التقديم لتناسب الفواصل .

من زيادة التشنيع على غرار قوله « أفأنتم له منكرون » قوله عز وجل : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون(١) » حيث قدم المجرور على الفعل « تفترون » لجعل افترائهم على غير الله تعالى عدما بالقياس إلى افترائهم على ربهم . يقول أبو السعود : (فأظهر الاسم الجليل ، وقدّم على الفعل ، دلالة على كمال قبح افترائهم ، وتأكيدا للتبكيت إثر تأكيد ، مع مراعاة الفواصل(٢)) .

وهذا كلام جيد يجمع بين المضمون والشكل ، فيكشف عن الغرض المعنوى المتمثل فى إبراز كمال قبحهم حين يخصون الله بالافتراء ، ويضم إليه جمال التناسب فى المقاطع .

ومما تقدم فيه القيد لتفظيع الفعل والتشنيع على فاعله قوله تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون(٣) » فالسخرية أمر ممقوت فى ذاته ، وحين تكون السخرية بمن شأنه الإجلال والتوقير فإنها تكون أشد مقتا ، وتخصيصها بالمؤمنين الداعين إلى الخير ، الساعين فى استنقاذ المستهزىء من إهلاك نفسه وإلقائها فى النار أشد وأفظع ، فقد كان المجرمون الساخرون بالمؤمنين يلقون قرناءهم من المشركين بالتوقير والإكبار ، على مايلمح إليه التقديم الذى جاراه النظم الحكيم فى

(١) سورة يونس آية ٥٩ (٢) تفسير أبى السعود ٧١/٦

(٣) سورة المطففين ٢٩ - ٣٠

فى توعده للمستهزئين ، وتهديدهم بيوم يخصهم فيه المؤمنون بالاستهزاء « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون » .

إنه القصاص العادل حين يسخر المؤمنون من هؤلاء الذين جعلوهم فى الدنيا مادة تفكههم ، ولما كان شأن المؤمن ألا يسخر من أحد فإن الله تعالى جعل سخريتهم خاصة بهؤلاء المجرمين جزاء وفاقا . وفى تقديم الحال « على الأرائك » إلماح إلى أن نظرهم نظر سعادة ورضا بما منّ الله تعالى عليهم .

ومما جاء التقديم فيه دالا على كمال القبح والتشنيع على من يعدلون بربهم مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ، قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون(١) » فأظهر فى مقام الإضمار ، وآثر وصف الرب بما يدل عليه من كمال الرحمة والرأفة ، وقدم على الفعل ليدل على شناعة ما ارتكبه الكافرون ، لما أن الشأن فى طبائع الناس وعاداتهم ألا يسووا بين أربابهم وغيرهم ، حتى قيل إن كل فتاة بأبيها معجبة ، فهى لا تعدل به سواه ، فكيف والله تعالى فوق ذلك هو الخالق الرحيم بخلقه ؟ ألا ترى كيف دل الإنكار بهذا التقديم منذ البداية أن الله تعالى خصوصا ما كان ينبغى أن يقرن به سواه ، وأن هذه المساواة وإن كانت فظيعة فى ذاتها فإن إيقاعها على ربهم خصوصا أفظع وأشنع ؟ حاول أن تقارن بين ما عليه النظم وبين أن تقول : ثم الذين كفروا يعدلون بربهم ، لترى أن تسليط الإنكار على الفعل يذهب إنكارا أشد حين يكون المعدول به خصوص ذات البارى . لعلنا لم نبعد كثيراً عما ذكره القاسمى . (ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل(٢)) .

---

(١) سورة الانعام آية ١

(٢) محاسن التأويل ٦/٢٢٣٩

التشديد فى الوعيد :

من التقديم للتهديد وإدخال الروع فى قلوب المكذبين قوله تعالى : «خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه(١)» حيث قدم المفعول « الجحيم » وهى نار عظيمة ، ليكون أول ما يفجأ السمع ، ويثير الروع فى قلوب الطغاة والمستكبرين ، فاجتمع لهذا التقديم المبادرة بذكر ما هو أشد العـــذاب لإدخال الروع فى القلوب ، وجعل تصليتهم فيها خاصة ، ليقطع عليهم الرجاء فى أن يخفف عنهم من عذابها فى منازل أخرى من النار .

ثم جاء المسلوك فيه وهو السلسلة ، مضيا مع هذه الغاية من التخويف والتهديد ، لأنها أشد وأقسى ما يذل به الكفار ، وكأنه يقول لهم لا تغلوه فى غير هذا النوع الفظيع من السلاسل . وذلك ما أشار إليه جار الله الزمخشرى : (ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظمى ، لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس ، ... والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك مثله فى تقديم الجحيم على التصلية ، أى لا تسلكوه إلا فى هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق(١)) .

هذا التخصيص الذى يملأ الجوانح رعبا لم يرتضه صاحب المثل السائر غرضا للتقديم ، وجعله متمحضا للفضيلة السجعية على حد تعبيره . يقول : (فإن تقديم الجحيم على التصلية ، وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل ، إلا أنه لم يكن هاهنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السجعية ، ولا مراء فى أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل : خذوه فغلوه ، ثم صلوه الجحيم فإن قلت : إنما قدم الجحيم للاختصاص ، لأنها نار عظيمة، لو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيدا ، وزيدا

---

(١) سورة الحاقة ٣٠ - ٣٢ (٢) الكشاف ٥٣ - ٤٤

ضربت ، وقد تقدم الكلام على ذلك . فالجواب عن ذلك أن الدرك الأسفل أعظم من الجحيم ، فكان ينبغى أن يخص بالذكر دون الجحيم على ماذهب إليه ، لأنه أعظم(١)) .

وقد كفانا صاحب الفلك الدائر عناء الرد عليه . فقال : (إن كان تقديم المعقول يقتضى الاختصاص كما قد قال قوم ، فلا مانع أن يكون الاختصاص مرادا فى قوله : « ثم الجحيم صلوه » لأن الجحيم والجاحم فى اللغة هو أشد النار . قال أبو تمام :

إن يَعْدُ من حرها عدو الظليم فقد

أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

ولا منافاة بين أن يراد الاختصاص ، وتراد الفضيلة السجعية(٢) .

ومنه قوله تعالى : « إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم(٣) » وقد نبه فيه الزمخشرى إلى الغرض من التخصيص بالتقديم ، فدل بذلك على أن التخصيص وسيلة من وسائل تحقيق أغراض النظم ، وليس هو الغاية التى ينتهى عندها الباحث عن بلاغة الكلام (فإن قلت : مامعنى تقديم الظرف ؟ قلت : معناه التشديد فى الوعيد ، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام(٤)). فقد رفع القرآن نذر الوعيد بهذا الحصر وما يبثه فى نفوس المنذرين من الفزع حين يعلمون أنهم لا يستطيعون الهروب من الله تعالى ولا يلوذون إلى ملجأ يحميهم من عقابه .

هذا التشديد فى الوعيد كثيراً ما يصاحب تقديم القيود فى النظم القرآنى ، وهو أكثر ما يكون فى تقديم المجرور على متعلقه ، كما فى قوله

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٣

(٢) الفلك الدائر على المثل السائر ٤/٢٤٩

(٣) سورة الغاشية ٢٥ - ٢٦ (٤) الكشاف ٤/٢٤٨

تعالى : «أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما فى الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير(١) ، فدل تقديم « بهم » على هذه المراقبة الدائمة لمن كفر به، تمهيداً لأخذه بسوء فعاله ، وكأن الله تعالى قد تفرغ لمراقبته وخصه بها دون خلقه ، وفى ذلك ما فيه من الوعيد الذى ترتعد له الفرائص ، وتنخلع له القلوب .

ومثله قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا(٢) » فكان تقديم « بما تعملون» تعرية لهؤلاء الذين يدفعهم حب الدنيا والحرص على الغنائم ، إلى سفك دماء من أعلنوا الإسلام ، مدعين أن دافعهم إلى ذلك خشية أن يكون إلقاؤهم السلام خداعا ، كيف والله يحيط بسرائرهم وهم لا يغيبون عن عينه !! إن هذا التقديم ليقرع القلوب قبل الأسماع ، بما يثيره من الإيحاء باختصاصهم بمراقبته ، وكأنهم وحدهم أهل السوء من بين أهــل الأرض جميعا ، فهى مراقبة الغاضب المترقب ، لا مراقبة الراضى المصاحب .

وعليه جاء قوله تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا(٣) » فكيف يظن المستخفى بخطاياه أن يفلت من العقاب والمؤاخذة ، والله تعالى معه يرقب سكناته وحركاته ، ويخص أعماله بهذه الإحاطة التى لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة ؟ ! إن التقديم للمجرور « بما يعملون » يتعاون مع الجملة الحالية « وهو معهم » ـ وهى معية مراقبة وتهديد لا معية مصاحبة وتأييد ـ فى نشر جو من الرعب وتوقع الانتقام ، يتلاءم مع مايوحى به التخصيص من

---

(١) سورة العاديات آية ٩ - ١١ (٢) سورة النساء آية ٩٤
(٣) سورة النساء ١٠٨

شدة المراقبة ، على معنى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وليس ذلك سوى تهديد بشدة الانتقام والتنكيل بمن لا يرعوى عن محادة الله وعصيانه .

التنبيه على خطر المقدم :

إذا أردت أن ترى كيف يسبغ القرآن على المقدم فى سياقه ما يبرز أهميته ، ويلفت النظر إلى عظيم أثره فى حياة الناس ، مما يتوارى معه كل أثر سواه ، فهذا قوله تعالى فى حديثه عن خلق الأنعام وتسخيرها لمنفعة الإنسان: « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون(١) » ، فجعلها وحدها قوام حياة الناس ، ومنها وحدها يقتاتون . وفى مقابله وفى مجال التنويه بشأن مايخرجه الله تعالى من نبات الأرض نجد قوله عز وجل : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون(٢) » وفيه حصر ما يأكله الإنسان فيما تخرجه الأرض من زروع . فأنت ترى الأكل محصورا فى الأنعام فى موضع ، ثم تراه محصوراً فى الحَبّ فى موضع آخر. فكيف تناول المفسرون سر التقديم فى الآيتين ؟

يقول البيضاوى فى تفسيره للآية الأولى : (وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآى ، أو لأن الأكل منها هو المعتـــاد المعتمد عليه فى المعاش(٣)) .

ويقول فى الآية الثانية : (قدم الصلة للدلالة على أن الحَبّ معظم مايؤكل ويعاش به(٤)) .

وهكذا يجعل التقديم فى الآيتين مفيداً للتخصيص ، ويفسره تفسيراً واحداً ، يذهب فى كل منهما إلى أنه هو الأصل المعتمد عليه فى المعاش ، ولعل ابتداءه بالمحافظة على رؤوس الآى يوحى بميله إلى أنه الغرض الأصيل

---

(١) سورة النحل آية ٦
(٢) سورة يس آية ٣٣
(٣) تفسير البيضاوى ٣١٢/٥
(٤) السابق ٢٤٠/٧

فى التقديم . أما الدلالة على التخصيص فقد استمدها من الزمخشرى .

وبالرجوع إلى الكشاف نجده يذكر فى الآية الأولى وجهين فى تفسير القصر . الأول : قصر إضافى على سبيل التجوز ، بجعل الأكل من الأنعام فى مقابلة الأكل من الطيور والأسماك لعدم الاعتداد بها ، والثانى : يفسره بما يدل على القصر الحقيقى التحقيقى يقول: (فإن قلت . تقديم الظرف فى قوله « ومنها تأكلون » مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها ، قلت الأكل منها هو الأصل الذى يعتمده الناس فى معايشهم. وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر ، فكغير المعتدّ به ، وكالجارى مجرى التفكه . ويحتمل أن طعمتكم منها ، لأنكم تحرثون بالبقر ، فالحب والثمار التى تأكلونها منها ، وتكتسبون بإكراء الإبل ، وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها(١)) .

وفى الآية الثانية يفسر التخصيص بما يدل على القصر الحقيقى على سبيل التجوز ، فيقول : (تقديم الظرف للدلالة على أن الحبّ هو الشىء الذى يتعلق به معظم العيش ، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر ، وإذا فُقِدَ جاء الهلاك ونزل البلاء(٢)) .

ليس فيما فسر به الزمخشرى الاختصاص فى الآيتين تناقض ، لأن السياق فى الآيتين كان يتطلب المبالغة فى عدم الاعتداد بما سوى المقدّم تنبيها على خطره وبالغ أثره فى حياة المخاطبين . فقد جاءت الآية الأولى فى سياق الحديث عما سخره الله تعالى من الحيوان لمنفعة الإنسان ، سواء منها ما يسدّ حاجته من الأكل وما ينتفع به فى التنقل ، فجاء حصر الأكل فى الأنعام كما جاء حصر الدفء فيها تنبيها على أهميتها البالغة وعظيم أثرها : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون

---

(١) الكشاف ٢/ ٤١٠

(٢) الكشاف ٣/ ٣٢٠

وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم(١) » .

أما الآية الثانية فقد جاءت فى معرض التدليل على قدرة الله تعالى فى الإحياء والإماتة ، وتوجيه نظر الإنسان المستبعد للإعادة بعد الموت ، إلى نموذج ماثل أمام عينيه يحيى فيه الله الأرض الميتة ، ويخرج منها ماتقوم عليه حياة الناس ، ولو أنها أمسكت مافى بطنها من النبات لهلك هؤلاء المكابرين جوعا ، ألا ترى إلى سياق الآيات ، كيف يربط الله فيه بين موت الإنسان وبعثه ، وبين موت الأرض وإحيائها « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون وإن كل لما جميع محضرون وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلا يشكرون(٢) » .

إن هذا النموذج للإحياء بعد الموت الذى صدره الله تعال بقوله : « وآية لهم » ليصل إلى كماله حين يتحول الميت إلى مرحلة من الحياة يكون فيها هو المصدر الأصيل لحياة الإنسان ، حتى ليعد ماسواه من مصادر معاشه فى حكم المعدوم الذى لا تتأثر به هذه الحياة هذا إلى أنه يمكن عده من القصر الحقيق التحقيق ، إذا اعتبرنا أن الأنعام ثمرة هذا النبات لاعتمادها عليه فى غذائها . فلا يحقق هذا الغرض من الكشف عن كمال هذه النعمة وعظم أثرها المستوجب لشكر المنعم إلا هذا التقديم ، فإذا صاحبه جمال الإيقاع فى موسيق الفواصل يكون قد اجتمع له الحسن من جميع أطرافه .

التقديم للترغيب :

مما تقدم فيه الظرف فى مجال الحث على العمل الصالح والترغيب فيه قوله

---

(١) سورة النحل ٦ - ٧ (٢) سورة يس ٣١ - ٣٥

تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم(١) » قدم الظرف « به » على صفة العلم ، تنبيها على أن الله يضع مايقدمه الإنسان لربه موضعا متميزاً يرقب معه نوايا المنفقين ، وطيب أنفسهم بما قدموا ، استثارة لطاقات الخير فى أنفسهم ، وحثـــا لهم على تخير أطيب ماالديهم ليضعوا فى يد الله من الصدقات ماهو أهل له ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

ولعل هذا هو السر أيضا فى تقديم المجرور من قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون(٢) » . لقد دار جدل طويل حول تقديم « مما رزقناهم » على فعله ، بين قائل بالتخصيص ، وآخر يقول بالاهتمام . وقد سبق أن قلت : إن التخصيص ضرب من الاهتمام وليس مقابلا له ، وهـــذا ما يتضح من كلام الزمخشرى : (وقدم مفعوله الفعل(٣) ، دلالة على كونه أهم ، كأنه قال : ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به(٤)) فالاختصاص دليل الاهتمام ، وليس مقابلا له فى نظر الزمخشرى ، وقد رفض كثير من المفسرين أن يكون التقديم دالا على الاختصاص ، معللين ذلك بأن كل ماينفقه العبد هو مما رزقه الله ، فلا مجال فيه للتخصيص ، واكتفوا بأن يكون الغرض هو مجرد الاعتناء بشأن المقدم . يقول صاحب التحرير والتنوير : (وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو « ينفقون » لمجرد الاهتمام بالرزق فى عرف الناس ، فيكون فى التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس ، كقوله تعـــالى : « ويطعمون الطعام على حبـــه » مع رعى فواصل الآيات على حرف النون(٥)) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٢ (٢) سورة البقرة آية ٣

(٣) يقصد الجار والمجرور لأنه مفعول فى المعنى .

(٤) الكشاف ١٣٢/١ (٥) التحرير والتنوير ٢٣٦/١

أدرى أن التخصيص الذى قال به الزمخشرى لم يفهم على وجهه ، وأن الذين رفضوه لم يتبينوا مارمى إليه من الدعوة إلى تخير الطيب الأجود من هذا الرزق . فالزمخشرى من القائلين بأن الرزق هو المال الحلال ، على خلاف مايقول به أهل السنة من أنه لا رازق إلا الله ، فجميع ما بيد العبد حلالا أو حراما هو من رزق الله : يدل على ذلك قوله : (وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقا(١)) .

فإذا كان مارزقهم الله هو حلالا مطلقا فاختصاص بعضه للإنفاق منه ، ذاهب إلى أن هؤلاء المؤمنين يتخيرون أطيب ما بأيديهم وأجوده ، فيخصونه بالإنفاق ، حرصا منهم على نيل البر بالإنفاق مما يحبون ، وفى ذلك من الترغيب فى إنفاق الجيد مافيه .

التقديم للتعريض :

مما تقدم فيه المعمول للتعريض قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون(٢) » وهو وجه كان الزمخشرى أول من قال به لتصحيح مذهبه فى دلالة التقديم على التخصيص ، لأن تخصيص مؤمنى هذه الأمة بالإيمان بالآخرة ، يناقضه ماهو ثابت من أن أهل الكتاب يؤمنون بها كذلك ، فكان لابد من تفسير لإخراجهم من دائرة المؤمنين بالآخرة ، واختصاص المسلمين بهذا الايمان ، فكان جوابه : (وفى تقديم الآخرة ، وبناء « يوقنون » على « هم » تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك(٣)) .

---

(١) الكشاف ١/١٣٢ (٢) سورة البقرة آية ٤

(٣) الكشاف ١/١٣٢

العدول عن التعبير بالإيمان إلى الإيقان هو الذى أوحى إلى الزمخشرى بفكرته عن التعريض، فالإيمان : الثقة ، وإظهار الخضوع وقبول الشريعة(١) والإتقان :العلم بالشىء وتحققه(٢) فأهل الكتاب أظهروا الخضوع وعلموا بالآخرة ، ولكنهم لم يصلوا إلى مرحلة اليقين والتحقق مما علموه ، فكان إيمانهم على ألسنتهم أكثر مما هو فى قلوبهم ، فلو أن إيمانهم هذا كان عن قناعة وتحقق لهداهم إلى الإيمان برسل الله جميعاً ، ولما فرقوا بين كتب الله ورسله .

لقد كان حس الزمخشرى مرهفا ، وتسمعه لهمس الكلمات دقيقا ، وعينه بلمح إشارات السياق بصيرة ، فقد وقع قبل هذه الفاصلة ما يوطىء لهذا التعريض بأهل الكتاب ، وهو قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » فإن فيه رائحة تعريض بإيمان أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه ، فكان إيمانهم بالآخرة إيمانا مشوها يلتبس فيه الحق بالباطل ، فلم يعتدّ القرآن بهذا الإيمان ، لأنه ليس يقينا . إنه قصر مجازى يلشر جواً من المبالغة فى عدم الاعتداد بإيمان لا ينجى صاحبه حتى يحيله عدما محضا .

إن هذا المعنى المتوهج يطفئه ماعلل به المفسرون التقديم من مثل قول أبى حيان : (وقدم المجرور اعتناء به ، ولتطابق الأواخر(٣) .

على غرار هذه الآية جاء قوله تعالى فيما أمر المؤمنين أن يقولوه رداً على قول أهل الكتاب : «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا(٤) » : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون(٥) » .

---

(١) القاموس المحيط مادة أمن .

(٢) السابق مادة يقن

(٣) البحر المحيط ١ / ٤٢

(٤) سورة البقرة آية ١٣٥

(٥) سورة البقرة ١٣٨ - ١٣٩

فقدم المؤمنون فى جوابهم المجرور « له » فى الفاصلتين ، إشعاراً بأن عبادتهم لربهم عبادة خالصة من شوائب الشرك ، وإخلاصهم لربهم لا تكدره عقائد فاسدة من مثل قول اليهود « عزيزا بن الله » وقول النصارى « المسيح ابن الله » فكان حصر عبادتهم وإخلاصهم فى ربهم تعريضا بأهل الكتاب الذين يخلطون عبادتهم ودعواهم الإخلاص بما يبطلها من أسباب الشرك .

ومن خفى مواقع التعريض ، وهو ما جعله ابن الصائغ دليلا على مخالفة الأصل(١) لتحقيق السجع ، قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون(٢) » وقوله : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ماكنتم إيانا تعبدون(٣) » .

فتقدم المفعول « إياكم » فى سؤال الله تعالى من الآية الأولى ، و « إيانا » فى جواب الشركاء على فعل العبادة ، وكان الظاهر أن يقال : أهؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ وماكنتم تعبدوننا ، لأن نفى تخصيص العبادة لا ينفى أصلها ، واستنكار الله تعالى ، وكفرهم ، كان بالعبادة لا بتخصيصها ، وهذا هو الذى دفع ابن الصائغ وغيره إلى جعل التقديم للفاصلة .

لكننا حين نقرأ جواب الملائكة : « بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون » يظهر لنا سر التقديم وما صحبه من الاختصاص ، وهو أنهم لم يعبدوهم عن قناعة وفهم ، بل إنهم كانوا يستجيبون فى عبادتهم لأهوائهم وماتوسوس لهم به شياطينهم ، فهو ضرب من التعريض بكذبهم فى دعواهم عبادة الملائكة ، وإنما كانوا يعبدون من أغووهم ، وهم مأمورون منهم بعبادة الملائكة ، خاضعون لسلطان شياطينهم ، فهم المعبودون بحق عندهم ، وهذا مانبه إليه قول الزمخشرى : (إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم

---

(١) الإتقان ٩٩/٢ (٢) سورة سبأ آية ٤٠

(٣) سورة يونس آية ٢٨

أن تتخـــذوا لله أنداداً فأطعتوهم(١) » .

وإنك لتلمح فى تقرير الله تعالى للملائكة والشركاء المعبودين من دونه نذر الغضب والانتقام ، حين يعد هؤلاء الشركاء المعبودون عبادة المشركين لهم كلا عبادة ، لأنهم انطلقوا فيها من شياطينهم وأهوائهم ، فكيف يقبل الله تعالى عبادة رفض قبولها الملائكة والأصنام ؟ !! إنها صورة الشرك القبيحة الشائهة ترسمها الكلمات المعبرة عن معانيها بدقة فى مواضعها من النظم الحكيم .

ومن التعريض بالمكذبين الذين أنكروا البعث ، والنعى على عقولهم قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر(٢) » لما كان المستبعد بالنسبة إلى المخاطبين هو إعادة الخلق لا بدؤه ، لأن تكرار الخلق أمام أعينهم صيره عادة خفى معها عظيم الصنع لتجه القرآن إلى النظر فى مادة الخلق ، وهى أبعد ما تكون عما استحالت إليه فى صورة إنسان بديع الخلق ، منبها إلى أن من شأنه أن يقدر على هذا البدء هو على ما دونه من الاعادة أقدر فى حكم العقل ، فكان تقديم « على رجعه » بما تضمنه من التخصيص نعيا على عقول المشركين المستبعدين للإعادة خصوصا ، مع إقرارهم بأن الله هو الذى خلقهم ، وفى ذلك من التعريض بعقولهم التى لم تدرك مثل هذه البدهيات التى لا تخفى على من لديه أدنى تعقل ما فيه .

الدلالة على كمال الاستغراق :

قال تعالى فى وصف أهل الجنة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة(٣) » تقدم المجرور « إلى ربها » ليدل على كمال اللذة فى نظر المؤمنين إلى ربهم ،

---

(١) الكشاف ٢/٣٣٥ (٢) سورة الطارق آية ٥ – ٨

(٣) سورة القيامة آية ٢٢ - ٢٣

واستغراقهم فى أنواره ، ورغبتهم عن التحول إلى سواه ، وهو ما تشيعه دلالة التخصيص من قصر نظرهم على ربهم، وهو لون من القصر المجازى الذى ينزل فيه النظر إلى غير الله من ألوان النعيم فى الجنة منزلة المعدوم بالقياس إلى جلال ربهم الذى يستغرق الأنظار فلا ترى مادونه ، إن أعظم ما يتمناه المؤمن فى الجنة هو أن يرى ربه ، فإذا ما أنعم الله عليه بذلك عدكل ما رآه ويراه غير شىء ؛ وانظر كيف يتعانق هذا التخصيص مع التعبير عن الله بلفظ الرب وما ينشره على النظم من معانى الرضا وجلال الأنس .

إن تعليل المفسرين للتخصيص هنا باعتبار تقييده بوقت النظر ، لا فى كل الأحوال(١) ، لا يعدو أن يكون تعليل صناعة يقصد به تصحيح صورة القصر ، حتى لا يقال : إن المؤمنين ينظرون فى الجنة إلى أشياء كثيرة مما يسر العين ويمتعها ، فيجاب عليهم بأن هذا الحصر فى لحظات النظر إلى الله لا فى كل الأوقات وهو كما ترى يذهب بما كشفنا عنه من كمال الاستغراق فى ذات الله ، وبما فى القصر من التجوز بعدم الاعتداد بما سوى الله تعالى ، وذلك مما أجازه البلاغيون فيما يسمى بالقصر الادعائى .

والعجب مما قاله ابن الأثير وناقض فيه نفسه : (وقد استعمل تقديم الظرف فى القرآن كثيرا ، كقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » أى تنظر إلى ربها دون غيره ، فتقديم الظرف هاهنا ليس للاختصاص وإنما هو كالذى أشرت إليه فى تقديم المفعول ، وأنه لم يقدم للاختصاص ، وإنما قدم من أجل نظم الكلام(٢)) فهو يفسر التقديم بما يدل على الاختصاص ، وعبارته : « أى تنظر إلى ربها دون غيره » قاطعة فى الدلالة عليه ، ثم يعود فينفى صراحة أن يكون التقديم للاختصاص ، وإنما هو للمحافظة على السجع ، وكأن القول بالتخصيص يناقض ما يهدف إليه النظم الحكيم من الجمع بين تناسب المعانى وتناسب الألفاظ .

---

(١) أنوار التنزيل ٢٨٣/٨ (٢) المثل السائر ٢١٧/٢ - ٢١٨

إن إعجاز القرآن يتجلى فى هـــذه المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون ، ليتحقق بها التناسب بين الفواصل، فى نفس الوقت الذى يتحقق فيه التناسب بين المعانى .

فإذا نظرت إلى جمال الموسيقى النابع من التوازن بين المقاطع وتوافقها فى الروى، خلت أن القرآن عمد إليه وتوخاه ، وإذا تأملت المعانى والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ وفقا لثوابت المعانى وحركتها فى الأذهان ، فمن أى جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز .

المراجع

* الإتقان فى علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطى
المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٣ م .
* أثر القرآن فى تطور النقد العربى إلى آخر القرن الرابع الهجرى
د . محمد زغلول سلام ، دار المعارف ـ الطبعة الثانية ١٩٦١ م
* الإعجاز البلاغى ـ دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، د . محمد محمد
أبو موسي ـ نشر مكتبة وهبة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م.
* الإعجاز البيانى للقرآن ، د . عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء .
دار المعارف ـ الطبعة الثانية ـ بغير تاريخ .
* إعجاز القرآن ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى ت . السيد صقر
دار المعارف ١٩٦٣ م .
* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — مصطفى صادق الرافعى
دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان بغير تاريخ .
* الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ـ ناصر الدين ابن المنير
الإسكندرى ـ مصطفى البابى الحلبى ـ القاهرة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .
* البحر المحيط ـ لأبو حيان الأندلسى ، دار الفكر للطبع والنشر ـ الطبعة
الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .
* بدائع الفوائد ـ ابن قيم الجوزية ـ توزيع دار الفكر للطباعة والنشر
بغير تاريخ .

* البرهان فى علوم القرآن — الامام بدر الدين الزركشى ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٨٨ م .
* البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د . محمد محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م .
* البيان القرآنى د . محمد رجب البيومى
مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م .
* التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور
الدار التونسية ـ للنشر بغير تاريخ .
* تفسير أبى السعود ـ القاضى أبو السعود محمد بن محمد العمادى ـ
دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان ـ بغير تاريخ .
* التفسير البيانى للقرآن الكريم ـ الجزء الثانى د . عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء ـ دار المعارف ـ الطبعة الثالثة ـ بغير تاريخ .
* تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ـ ناصر الدين بن عمر البيضاوى
دار صادر ـ بيروت بلا تاريخ .
* تفسير القرآن العظيم ـ الإمام ابن كثير الدمشقى ـ بلا تاريخ
نشر المكتبة التوفيقية ـ الحسين ـ القاهرة بلا تاريخ .
* تفسير الفخر الرازى ـ محمد الرازى فخر الدين
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنـــان ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٥ م .
* تفسير القرطبى ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى
دار الريان للتراث بلا تاريخ .
* تفسير المنار ـ السيد محمد رشيد رضا
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

* حاشية السيد الشريف على الكشاف - السيد الشريف الجرجانى
مصطفى البابى الحلبى - القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
* حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى - شهاب الدين الخفاجى
دار صادر - بيروت - بلا تاريخ .
* درة التنزيل وغرة التأويل - الخطيب الإسكافى
دار الآفاق الحديثة - بيروت - بلا تاريخ .
* دلائل الإعجاز - الإمام عبدالقاهر الجرجانى ت محمود شاكر
نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة - بلا تاريخ .
* روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم - شهاب الدين الألوسى البغدادى
دار إحياء التراث العربى - بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
* سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى - شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدى ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ميدان الأزهر - القاهرة ١٩٦٩ م .
* الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية - جمعها : أبو بكر عبد الرازق - المكتبة الثقافى للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٩٩٠ م .
* صور البديع - فن الأسجاع - على الجندى .
دار الفكر العربى - القاهرة - بلا تاريخ .
* الفاصلة القرآنية - محمد الحسناوى
المكتب الإسلامى - بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٦ م
* الفتوحات الالهية - سليمان بن عمر الشهير بالجمل
مطبعة عيسى البابى الحلبى - بلا تاريخ .

• الفلك الدائر على المثل السائر — ابن أبي الحديد
مكتبة نهضة مصر — الفجالة بلا تاريخ .

• القاموس المحيط — مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي
ت مكتبة تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٧ م .

• الكتاب — سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

• الكشاف — جار الله الزمخشري
مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

• لباب التأويل في معاني التنزيل — الخازن
دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت — بلا تاريخ .

• لسان العرب — ابن منظور ت نخبة من العاملين بدار المعارف
— دار المعارف ، القاهرة — بلا تاريخ .

• المثل السائر — ضياء الدين ابن الأثير ت د . أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الفجالة — بلا تاريخ .

• محاسن التأويل — محمد جمال الدين القاسمي
دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ط ١ — ١٩٥٨ م .

• المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسي
ت المجلس العلمي بفاس ١٣٩٤ — ١٩٧٤ م .

• مسائل الرازي وأجوبتها — محمد أبو بكر الرازي ، ت إبراهيم عطوة
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ط ١ ، ١٩٦١ م .

• معاني القرآن — أبو زكريا الفراء — الجزء الثالث
ت . د . عبد الفتاح شلبي ، الأستاذ علي الجندي ناصف - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

• المفردات فى غريب القرآن ـ الراغب الأصفهانى ت . محمد سيد كيلانى
مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٦١ م .

• من بلاغة القرآن — أحمد أحمد بدوى
دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ الفجالة ، بلا تاريخ .

• نتائج الفكر فى النحو — أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السهيلى
ت د. محمد البنّا ـ دار الرياض للنشر والتوزيع بلا تاريخ .

• نقد الشعر — أبو الفرج قدامة بن جعفر ، ت د . عبد المنعم خفاجى
مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ٩٧٩ م .

الفهرس

الترتيب بين المتعاطفات ص ١٠ - ٣٧

الترتيب بين الصفات ص ٣٨ - ٥٧

الموضوع	الصفحة

تقـــديم القيود ص ٥٨ - ٨٠

رقم الإيداع ١٩٩٤/٣٢٦٧
بتاريخ ١٩٩٤/١/٢